الذين مكثوا في الأرض..

ورفضوا الجنة

اسم العمل : الذين مكثوا في الأرض.. ورفضوا الجنة
النوع : قصص
تأليف : أحمد سعيد أسمري
تصميم الغلاف : أحمد الملواني
مراجعة لغوية : سامي العربي
إخراج داخلي : عبدالقادر فايز
الطباعة : اتيليه تاتش – المحروسة
الناشر : الدار للنشر والتوزيع
المدير العام : محمد صلاح مراد
تليفون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريد الإلكتروني : eddar_press@yahoo.com
فيس بوك : www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع : ٢٠١٦/٢١٧٦٤
التـرقيم الدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-151-7

فكرة العنوان من كتاب
أنيس منصور...
الذين هبطوا من السماء

الذين مكثوا في الأرض..

ورفضوا الجنة

وقصص أخرى

مجموعة قصصية

لـ أحمـــــد سعيـــد أسمري

الدار
للنشر والتوزيع
٢٠١٦

إهـداء

إلى التي جعلتني أتغير بمعنى الكلمة..
بل و جعلتني أخرج من صومعتي إلى العالم الأخر.
إلى كل من ذكرتهم بين السطور في قصصي ..
إلى الأيام التي أنبتت تلك القصص.
إلى كل من سخر مني .. وظن أنني
لا أستطيع أن أفعل شيئا يفلح.
وإهداء بالطبع إلى.. كل من وثق فيّ..
وانتظر معي هذا اليوم.

وإلى شعب الميكروباص ..

إلى أبي وأمي ..
لعلهم يفخرون بي يوماً..

تقديم..

بدأت سـرد المجموعة القصـصـية منذ خمس تحت عنوان "ثورة الميكروباص" وحينما انتهيت، تقدمت بها إلى الهيئة العامة لقصور الثقافة للنشـر في بداية العام ٢٠١٤ وتفضـلوا مشـكورين بقبولها والبت في أمرها لمدة عامين..

في تلك الأثناء كانت أخذت المجموعة موافقة مبدئية من الدكتور المحترم "سـعد عبد الرحمن" قبل أن يترك رئاسـة الهيئة، وكانت وضعت ضمن قوائم كتابات الثورة و إبداعات الثورة، لكن لأمر ما لا يعلمه إلا الله تم إلغاء تلك القوائم، ولم نقول وقتها أنه سـبب أمني ولا حاجة..

وتوقفت دون حتى إبلاغنا وقد علمت ذلك في مرة من تلك المرات التي صـعدت فيها الأدوار الأحدى عشـر للهيئة، وطلبت مقابلة مدير النشـر أ. محمد أبو الخير، ووضـعها مشـكورًا في قائمة مسموحة للنشر، لكن قيل لي بعد ذلك من الموظفات الفاتنات أن الهيئة ليس فيها فلوس والوضـع الاقتصـادي كما تعلم، وكأن هذا الكتاب الذي يتحدث عن نظرية ثورية في اقتصـاد الدولة، هو ما سيضـر بالاقتصـاد، المهم أنه عرض علي من بعض الأصـدقاء

آنذاك بعد الواقعة، مقابلة إحدى الصحفيات بوكالة إعلامية عالمية لطرح قضيتي كا أحد الكتاب الممنوعين أمنيًا لكني رفضت تكبير الموضوع..

وهذا الكلام على مسؤوليتي، واسم الكتاب القديم موجود في دفاتر الهيئة..

مقدمة عن الكتاب..

إن هذا الشعب؛ بسبب كثرة شربه من ماء النيل أصبح مثله، فقد اتخذ من صفاته،

و كأنه أباه الذي أنجبه، فظهرت ملامحه في جيناته، رغم قوته واندفاعه وثورته، فيسهل توجيهه أو كبح جماحه وغضبه، بل وتسييره في قناة ليصبح دون أمواج متلاطمة إلا بينه وبين ذاته، فلقد بنوا بداخله سدًا منيعا، ولم يعد قادرًا على تقرير مصيره إلا من خلالهم..

ومعظم القصص التي ستقرأها في الصفحات القادمة لهي وقائع حقيقية يصدق فيها الجملة المشهورة ((حدث بالفعل)) رغم أنها تبدو منافيةً للعقل أو المنطق أو الزمان.

ورغم ما تبدو عليه من تفاهة في التفاصيل، إلا أن كل تفصيلة وكل كلمة وكل سكنة كتبت بعناية.. لتوصل معنيً وتبني وعيًا.

وقد بنيت هذا الكتاب ونسجت خيوطه بين القصص.. كي أكون نظرية حاسمة وفاصلة.. عبر تساؤل خطر ببالي أثناء استقلالي (يوما ما) إحدى المواصلات الخاصة "الميكروباص"، ورأيت بألم

كيف يرتضـــي الناس ويرضـــخون لشـــروط وأوامر الســـائق، ولا يتفوهون معـه ولو بكلمـة واحـدة، رغم حـديثهم الـدائم عن الثورة و..و..، بل إن بعضـهم يتفلسـف أحيانا بالحديث عن كيفية تكوين مســـارها.. وكيف لها أن تتم.. وما هي ســـبل تعديلها.. إلى غير ذلك.

وتسألت حينها.." كيف لشعب ..قام بثلاث ثورات في ثلاث سنوات (أو بمعني أصـــح وأدق) قام بثورة (لها موجات متتابعة)، ثم لا يثور على سـائقٍ يرفع ثمن الأجرة أو يختصـر الطريق في عجالة، وإنزال ركاب، و نقل آخرين، ليدرك دورة أخرى، و كأنـه كان يلقي بقمامة في سلة مهملات. أو حينما يشعر هذا الشعب بالغلاء فإنه أصبح لا يستغنى، بل يشتري أكثر وكأنه ينزلق إلى مجاعة..

وبعد بحث عميق ..اكتشـفت أن الشـعب الذي اسـتطاع أن يغير ثلاثة أنظمة في ثلاث ســـنوات.. لا يســـتطيع أن يغير ســـائق الميكروباص أو يثور عليه، وأن حال الثورة وحال البلد لن ينصـلح إلا عندما ينصلح حال "الميكروباص".

هذا الكتاب.. جاء ليثبت نظرية تقول "إن التغيير لا بد وأن يكون على مزاج الشعب" ومهما تغيرت الأنظمة.. فلن تفلح ثورة إلا لو أراد الشعب أن يتغير بالفعل، بل هو من سيدفع النظام إلي التغيير، وذلك فقط.. حينما يؤمن أنه سيصل في الوقت الذي يحدده الله، وليس في الوقت الذي يحدده "سائق الميكروباص"..

وبما إن الدين هو أساس تفكيره وخلفيته الاستراتيجية، فمن هذا المنطلق جاءت استكمال توضيح النظرية التي يعرضها الكتاب، من يرفضون التغيير كما جاء في النصوص المقدسة والأحاديث النبوية والقرآن، فسنة الله في الأرض هي التعمير والتغيير ودرء المفاسد وتغير المنكر سواء باليد أو بالقلب وهذا أضعف الإيمان.

هؤلاء هم من مكثوا في الأرض ورفضوا الجنة.

- من ذاكر الأعوام التي تلت الثورة جيداً سيحدد ويستطيع أن يتعايش مع الآتي.
- العيب ليس في النظام، وإنما العيب في الشعب، فهو من يجب أن يتغير.

شـــيء عجيب كان يجري في راديو "الميكروباص" وكأن محطات الراديو تحالفت ضده، وكأنها تريد أن تصنع له موسيقى تصويرية تجســـد حالته، التي يمر بها بعد ليلة عصـــيبة، في اشـــتباكات الكاتدرائية والأعجب أن الركاب في "الميكروباص" هادئون على غير العادة.. لا يتحدثون بشـــكل دجمتي ..ولا يحزنون على حال البلد، وكأنهم يشاركونه في حالته.

أو أن مخرج هذا "الكليب" أصـــمتهم لأن الكاميرا "زوم إن" على البطل والذي يسند رأسه إلي زجاج نافذة "الميكروباص" ويتنهد مع كل أغنية "للســـت أم كلثوم " عن الهجر والفراق والبعد، رغم أنه ربما لا يحبها، وأيضـــاً الأغاني الشـــبابية التي تتقلب مع انتقال السـائق بين محطات الراديو والتي تطنطن (تدندن بصـوت) في نفس المعاني الموجعة، ولعلهم صـــامتون لأنها (ســـاعة صـــبحية ومحدش قادر يرغي)..

ولقد أصـــر أن يذهب ليدافع عن الكنيســـة، التي تنتمي هي إليها وهو يعلم أنه لربما يشـــتبه به أحد أو يمنعه من الدخول لأنه لا ينتمي إلي المكان (لايوجد صليب على يديه) أو ربما يقبض عليه في الطريق أو يهاجمه من يهاجمون كنيستها.

لم يســـتطع أن يقاوم رغبته في رؤيتها ومســـاندتها في يوم جريح كهذا، ولم يشعر بقدميه وهو يجري بجوار أخت "مينا دنيال" بعدما رأوا النيران تتصـــاعد بجوار ســـور الكنيســـة في التلفاز ورأوا الغاز المسيل للدموع يخترق الجدران عمداً.

دخل الأســـوار المحاطة بالصـــلبان ولكنه لم يشـــعر بأنها كنيســـة، فالاشـــتباكات داخلها واســـتماتة أبناء الكنيســـة في الدفاع عنها، والوجوه التي تعود عليها وألفها في كل مواقع اشـــتباكات الثورة، جعلت الكنيسة تبدو وكأنها معركة وحلقة جديدة من حلقات "موقعة شارع محمد محمود" الشهيرة.

بحث عنها بين دخان الغاز المســـيل، وبحث عنها بين أفراد المستشفى الميداني وبحث عنها بين الصفوف الأولى في مواجهة " الضـــرب"، بحث عنها وعن عينيها اللتان كانتا دائماً ما يراهما دامعتين من أثر الغاز أو لسيرها في مسيرة تأبين شهيد، وتمني أن

لو رآها الآن ليطمئن عليها وعلي عينيها وإلى أي حد وصـــلت دموعها.

وفجأة..إإ رآها أمامه دون ســـابق إنزار.. وكأن العالم اختفى، وتوقف كل شـــيء من حولهما، وبقت هي وحدها، وعيناها تنظران إليه، شـــئٌ ما جعله ينصـــرف بعينه عنها، ربما لم يُرِد أن يجعلها تشعر أنه أتى من أجلها هى وحسب، فيفقد المعني البطولي طعمه ، ويهبط فى نظرها من السماء إلي الأرض، أو ربما أراد أن يريها أنه لم ينشغل بها قدر انشغاله بالدفاع عن كنيستها، ولأسباب خفية ظل يختفي من أمامها ثم يظهر، وينظر لها من بعيد لبعيد، ويبتعد أكثر حينما تنتبه لوجوده.

لم يكن يعلم بأنها آخر مرة ســوف يراها فيها إلا وهو يســألها في "الشـــات" عن حالها واختفاءها الطويل.. فردت علي الفور.. "أنا سافرت كندا".

شعر حينها أنها تريد أن تقول له شيئاً بين حروف الكلمات، وبين النقاط الإلكترونية التي كتبت الجملة، والتي لم يكن لها وجود أصلاً .

ولكنه تراءئ له أنها تســـتعد للبكاء في النصـــف الآخر من الكرة الأرضـية، وكأنها بجملتها المختصـرة "أنا سـافرت ومش راجعة " تريد أن تقول لـه " لن تراني مرة أخرى، فلقد كانت صـــدفة ولن تتكرر".

وقتها دفن بإصـــبعه الدمعة التي أرادت أن تنبش قبر عينيه، وقال لها إن آخر مرة رآها كانت في الكاتدرائية. وإنه ليس بحلٍ أن نترك بلدنا ونرحل، مهما ساءت الأمور.

ولكن ردها كان صـاعقا.. فقالت إنها كانت في الأصـل تعيش في كندا، وجاءت إلى مصـــر، من أجل المشـــاركة في الثورة، ولكنها عادت إلى كندا، بعد تباطئ الأوضـــاع والصـمت الشـعبي المبالغ فيه والرضـوخ للديمقراطية المزيفة وخسـة المعارضـة والوضـع الذي وصـــفته في كلمات بســـيطة " أنا لقيت مفيش حاجة تتعمل فقلت أرجع أشتغل شوية ولو في حاجه هرجع لمصر".

وهنالك.. وبعد هذه الكلمات، كأن الروح ردت إلي الجســـد، ولم يدري بنفسه وهو ينفلت بلسانه أو بمعنى أدق بصوابعه وهو يكتب علي لوحة المفاتيح " يعني أنت جيتي عشان الثورة.. معنى كده لو

فيه ثورة قامت هترجعي ".. فردت بالإيجاب.. فرد هو قائلا : "خلاص أنا هعمل ثورة عشان ترجعي ".

وكأن العالم توقف أو أن مقبس الكهرباء في العالم كله قد انقطع عنه، و رغم شعوره أنه ألزم نفسه بأمر عظيم، لكنه دائماً ما كان يحلم بثورته، تقوم على مبادئه التي تعلمها وحلم بها، وأحس أنه لربما يكون هذا هو وقت ثورته وها هو دافعها لكي تقوم .

تمر الأيام وهو يبحث و يدقق مع عقارب ساعة الحائط، ويفكر في فكرة يبثها في العقول حتي تنشطها وتحشدها، وأخيراً.. خطرت بباله، تلك الفكرة التي سخروا منها بالأمس القريب، وبعد غياب دام طويلا في حجرته، خرج إلي الشارع، ووجد الناس تجري وفي أيدهم أوراق كتب عليها شعارات، فسألهم و هو يكاد يعرف الإجابة، لأن ما يحدث أمامه شئ شبيه بأحلامه عن فكرته، فأجابوه بأنهم يريدون أن يصنعوا ثورة، وتحدث في نفسه ساخراً "هل كل هؤلاء يريدون أن تعود صديقتي لي ؟!".

أمسك بالأوراق يقرأها فلم يقتنع بما فيها، فلم تكن هذه فكرته بالضبط، ولا تصلح أن تقدم مستقبل لما بعد الموجة العالية العاتية، وحارب لأجل إصلاح ما فيها ولكن الأوان قد فات.

وحدثته نفسه أن لو كانت هذه هى الطريقة التي ستعود بصديقتي فلتكن، وظل يحارب في كل ميدان ويناقش كل العقول، أراد أن يكون شعلة متوهجة، تشعل منها الناس شموعها لتنير طريق الثورة.

ولكنه دائما ما كان يرى أن الثورة والمقاومة بدون صديقته تلك، كالثائر دون هتاف، كا الشمعة دون فتيل وضياء، كأي شيء دون أي شيء يكمله ويملأ فراغه الأخر ويعطيه المعنى والمغزى من الحياة.

ولكن شيئا ما كان مختلفا هذه المرة في الميكروباص، و لأول مرة في تاريخه يتحدث في موضوع واحد ولأول مرة يحدث تعاون بين السائق والراكب في غير "لم الأجرة "، وعلى الرغم من هذا التعاون و" الثورجة " لأجل التغيير، فإن الوضع بقي كما هو، فقد رفع السائق الأجرة عمداً، واضطر الشعب إلى دفعها، من باب سوء الأحوال.. و"بكرة تتعدل ومضطرين وغيرها من المبررات المعلبة والمكررة لدرجة السأم والملل منها ومن تكرارها..

وقامت الثورة ..وهى لم ترجع.

" بعد يوم طويل وحار وعصيب وسير في الشوارع، ورغم الزحام المديد الذي لا يري منتهاه علي مرمي البصـــر، قررا ركوب " الميكروباص" رغم أنه كان يعج بالركاب، إلا أن حظهم كان وافرا، في وجود كرسيين متجاورين أمام فتحة باب الميكروباص الجرار، ومن المدهش أن الســائق تحرك "بالميكروباص" و هناك كرســي فاضي، وظل نصف الطريق خاليا إلى أن حن عليه رجل عجوز، ثم نزل وركب رجل آخر، ثم نزل وظل هذا الكرســي يمتلئ ويفرغ حتي أثار الدهشــة المرحة والضــحك بين الركاب، الســائق أخذ الموضوع على عاتقه ولم يشاركهم الضحك، ولم يتفاعل معهم إلا بعقد الحاجبين، رغم أن "هى" هى التي من الأجدر أن تغضــب فيدها التي تفتح وتغلق الباب مراراً وتكرارا، والذي جعل "هو" أن يستبدل مكانه معها حتي يريحها.

إلي أن صــعد شــخص ممتلئ أخذ حيزا كبيرا من الكرســي فأثار الضــحك وعندها "هي" أكثر ولم تهدئ، مما نقل العدوى إلي الأخرين وسمع في كل أركان " الميكروباص" أصوات كتم أنفاس الضحكات حتي الرجل الممتلئ نفسه لم يعرف السبب ولكنه بدا

مبتســـما حتى انفجر هو الآخر في الضـــحك وانفجروا معه.

كل هذا وما زال الســـائق عاقد الحاجبين ومكتفيا بالتحملق في المرآة، وبدا "الميكروباص" كسفينة تسير في "الحر" والناس تشاهده من على الجانبين ولا يستطيع أن يوقفه أحد، إلى أن اندفع شاب أمام" الميكروباص" يوقفه ليركب، قالوا له "مفيش مكان " وانفجروا في الضحك، تلك الجملة التي خرجت من السائق مرة واحدة طوال الطريق، وتحت ضوء الشمس الحار اندفع الناس في الشارع، لاستيقاف الميكروباص ولكن دون جدوى.

مواطن : إسعاف ؟؟!!!

هو وهي : أيوة.. بس مفيش مكان.

مواطن آخر : تحرير ؟؟!!!!

هو وهي : أيوة ....بس مفيش مكان

مواطنة: نصر ؟!!!!

هو وهي : أيوة ... بس مفيش مكان ..

وآخر : سلام ؟؟؟!!!

هو وهي : أيوة.. بس مفيش مكان..

وظلوا يرددون تلك الجملة في وجه أي أحد يسأل عن آي مكان .

مرات باستهزاء ومرات بضحك منفجر، حتى حدث ما لم يتوقعه السائق.

مواطنة : عرابي ؟؟!! ..السيرك ...بالون ؟؟ !!

الركاب : أيوة....بس مفيش مكان ....

آخر : تحرير ؟!!!

الركاب أيوة... بس مفيش مكان ... "بانفجار من الضحك ".

وعلى نغمات ودوشة المزيكا الشعبي العالية وأغنية" الدنيا سيرك ومسرحية " أصبح مشهد الميكروباص في الشارع هزلي وكأنه مقتطع من فيلم كوميدي أو من فيلم كارتون أو من قصة في مجلة مصورة ساخرة.

بـدأ "الميكروبـاص" يفرغ من بعض الركـاب الـذين احتفظوا بضحكاتهم على وجوههم وأيضاً بإشاحة وداع بأيديهم لـ هو وهي، الذين أضفوا على عناء اليوم بهجة عجيبة.

استمر هو وهي، ومن بقي من الركاب في ترديد الجملة على الرغم من فراغ الكراسـي مما أصـاب السـائق بالهلع في البداية ولكنه رضخ للأمر في النهاية وردد معهم.

وفرغ "الميكروبـاص" تمـاماً إلا من (هو وهي والسـائق) وهم مصـرون على ترديدها، وسـط ضـحك متبادل وترنحات من هزة " الميكروباص" على الطريق.

و أي أحد يركب (وعلى غير علم بالموضـوع) يندمج في تلقائية ويردد معهم، حتى ينزل وسط ضـحاكات عالية. وبعد قليل انتبهت هي إلى أن الميكروباص توقف واكتشـفوا بعد تمتمات غاضـبة من السـائق ومسـتنكرة اثناء "رزعه " لبابه، أنهم عادوا مرة أخرى لبداية الطريق ولم يصـلوا لمبتغاهم، فنزلوا في ضـحكات عالية وكلمات ساخرة، تستعيد ما حدث طوال الطريق، وبعدما انتهوا من ضحكهم وجدوا السـائق يتحرك بالميكروباص فسـألوه في جدية "راجع

ياريس". رد ســاخراً وهو يركب ويغلق بابه ورائه "أيوة.. بس مفيش مكان ".

وانفجر هو وهي في الضــحك، وظل الســائق يردد الكلمة، ولاحظ كل من ركب معه أن الميكروباص يفرغ ولا يمتلئ .

..جاييييين ..." في انتظار القراصنة"

"ما كان يخطر بباله أبداً أو بأحلامه أن يري شـــبه جزيرتهم يوماً بهذا الشكل، الكل يحمل سلاحا خارجاً أو داخلاً من كوخه، السلام في شبة الجزيرة أصبح بالسلاح، اختبار الأسلحة و لمعان النصول و أصوات الطلقات يدوي طوال الوقت حتي في أوقات النوم بحجة إيهام القراصنة.. أنهم مستيقظون.

دخل "راس رافيج " كوخه وفتح كراسـة مصـنوعة من أوراق نباتات ولحاء البوص وقصـب السـكر، كان قد كتب فيها بعض الكلمات المتغزلـة في "تورث رمص"، أراد فقط تذكر بعض ملامح شـــبة الجزيرة منذ فترة قبل أن ينساها.

وظل يقلب الصـفحات، وظل يقرأ ما كتبه عن وطنه، { إن "تورث رمص" تمتاز بأنها شـبة جزيرة هادئة، كثيرة الخضـرة ومتناسـقة، وأهلها طيبون، لا يحبون الحروب ويفخرون دائماً بأنهم يستطيعون العيشَ في سلمية، ويديرون أمورهم كلها على هذا النحو السلمي، ولا حاجة لهم بالعراك مع أحد، ولا ينتبهون كثيراً لأي من الســـفن التي تمر بهم، فهم منـدمجون في أعمـالهم من الصـــبـاح حتي

المساء، وأكثر الأشياء التي تجعلهم يتحركون في سرعة وعجلة هو هطول المطر، حيث يهرول كل واحد منهم إلي كوخه ليمسك به قبل أن ينجرف في مسار المطر، وأهم ما يميز "تورث رمص" أيضاً أن أهلها متعاونون ومتشاركون في الأعمال والمطعم والمشرب، ولكن أهلها و رغم كثرة مميزاتهم التي لا حصر لها.. فهم غريبون في أفعالهم، فإذا تحدثوا مع بعضهم لا تستطيع أنت فهمَ أحدهم، أو أن تخرج من كلامهم هذا بشيء واحد يفيد في النهاية، فيتحدثون ويتحدثون ثم ينفض اجتماعهم فجأة، ويذهب كلٌ إلى كوخه.

ولم يعرف سكان شبة الجزيرة تنظيماً ولا نظاما اجتماعيا يجمعهم، لحماية شبة جزيرتهم التي قد تتعرض علي المدى البعيد لهجمات من الغرباء، فهم يعتقدون أنهم آمنون ويحميهم من وهبهم شبه جزيرتهم وخيرها، ولم تعرف حاكما أو قائدا واضع يد ...

قلب "رافيج" بعض الصفحات متخطياً تلك السطور التي تحكي عن ماضي " تورث رمص" فقد أراد أن يضيف بعض الملامح الجديدة التي حلت عليها ولكنه توقف عند فقرة مهمة..تقول:

جاء اليوم رجلٌ غريبٌ مر بمركبه، وقال لبعض الواقفين على الشواطئ من الصيادين أنه يحمل رسالة وخبرا عاجلا، ولكن يجب أن يحتفظوا بسريته ويبلغوه أولو الأمر فقط، ثم جمعهم حوله وتحدث معهم في همس واعتلي مركبه واختفى في الخط الواصل بين البحر والسماء، لم يعكر فتح أفواههم من وهلة وقوع الخبر، سوى أنهم رأوا ظله في الغسق قد ابتعد، وانتبهوا إلى أنه شدد علي سرعة توصيل الخبر وأهميته، فخطورة الخبر جعلتهم يهرولون وينكبون علي وجوههم كأوانٍ ألقيت من فوق تلة، وحرصهم أيضاً على الأسبقية في توصيل الخبر كلُ بطريقته الذاتية الممتعة، فكل من فيهم أراد أن يكون أول ناشر للخبر، وخبره الأكثر تشويقاً، ذهب جزء منهم للأكواخ مراقبين الشواطئ، وذهب آخرون إلي كبار سكان شبة الجزيرة، و آخرون إلي أصدقائهم، وآخرون إلي النساء العاملات في الحقول ومزارع العنب وتحت أثداء مصانع اللبن الطبيعي ، سواء مُحلِبة أو مُحلَبة، وسرعان ما انتشر الخبر في شبه الجزيرة وكأنه نثر في الهواء، وفي ذات اللحظة صعد استفهام من أسطح أكواخ شبه الجزيرة في صوت واحد "جاييين؟؟!!".

وفي الكوخ الكبير اجتمع كبار سكان " تورث" ومترفوها، ليروا ماذا سيفعلون بأمرهم هذا، بعد سماع خبر الهجوم المتوقع من قبل

القراصنة، الذين يريدون أن يغتصبوا شبه جزيرتهم، إضافة إلى أنهم مدججون بالسلاح، فشبه الجزيرة معرضة لخطر داهم الأن..

قال أحد المجتمعين : يجب أولًا.. أن نتأكد من الخبر.. قبل أن نفزع.. ثم يتضح لنا أن الأمر كله هراء وليس صحيحاً.

وقال آخر : يجب أن نأخذ حذرنا.. ولا ننتظر إلى حين التأكد بل وفي أسرع وقت.. لربما يكون الأمر حقيقة، ووقتها يكون الأوان قد فات.

واقترح آخر: يجب أن نصنع من الأشجار والنباتات سدودا وأسوارا، حول مداخل شبه الجزيرة، وأن ننصب لهم أَشْرُكًا و فِخَاخًا تحول بين القراصنة وبين دخول شبه الجزيرة .

فانفعل عليه آخرُ ساخراً : إنهم يحملون نيرانا ومتفجراتٍ.. لن تمنعهم أشجارك.. أشجارًا وأَشْرُكًا!! ..إنهم مدربون علي كل هذا.. لقد رأيتهم، وسمعت عنهم وعن أفعالهم في الجزر الأخرى.. إنهم مدربون .. ومرعبون ..

فاقترح آخر: إن كان ولابد أن نتأكد، فعلينا مع تأكدنا أن نحاول استجلاب بعض ذوى الخبرة في هذه الحروب من الجزر المجاورة..

قاطعه أحدهم : آاااه ..هل مِن أجل أن نتخلص من قراصنة، نأتي بأيدينا بقراصنة آخرين.. وبدلاً من أن نحارب لتحرير أرضنا.. نعطي أرضنا لآخرين علي طبق من نباتات زينة "تورث رمص".. إنكم تُهزُون من الخوف..

تحدث أحد الهادئين : إن كان هذا الخبر صحيحاً، فيجب أن ندافع عن أرضنا وبأي وسيلة، ولو اضطررنا إلى شراء سلاح لنحارب به ..

قاطعه أحدهم : وكيف نستخدم السلاح ؟!! ونحن لا خبرة لنا به ولا نعرف حتى ما أنواعه، فمن يدرينا أن هذا سلاح جيد أو ذاك متطور أوعفى عليه الزمن، أو أنهم لا يحملون أقوى منه وأحدث..

فتحدث مرة أخرى المنفعل الساخر: لقد سمعت أنهم يحملون سلاحا أتوا به من كل مكان دخلوه، وأنواعًا لا نسمع عنها، ولم نرى مثلها في تلك النواحي.

وأكمل المتحدث كلامه : سوف نأتي بمن يكون معنا يدربنا، ويشد من أزرنا ويزيد عددنا، أو نرسل لهم فتيان يتدربون ثم يرجعون لنا، فينقلون إلينا و يعلموننا ما تعلمونه..

فقاطعه الحضـور بأصـواتٍ متداخلةٍ رافضـةٍ الفكرة، وخائفةٍ علي فتيانها وفتيان شـبه الجزيرة، وانتهوا إلى لا شـئ وهم بين هتافات وشجار ومشادات ... يرددون :

: لا نرمي بأولادنا حتي يخسروا أرواحهم وأنفسهم ..

: نحن مضطرون ..نحن في حرب ..

: نعم نحن في حرب ...وتحلوا قليلاً بالشجاعة أيها الجبناء ..

: لا نعرف أن نحارب بأنفسنا..أجروا لنا حراسا..

: تباً لكم وبئس صـــنيعكم ..القراصـــنة قادمون في طريقهم وأنتم تتشاجرون ..

: السلاح السلاح.. والعتاد هي التي ستحمينا..

وذهب كل منهم إلي كوخه بعدما فرغ من كلمات جالت بصدره ..

وفي الصباح استيقظ أهل "تورث" ووجدوا عربة توزع عليهم عِصيًا و أوراقًا، بها تعليمات استخدام العِصِىّ ومتى..

وآخرون تجمعوا حول عربة أخرى لأخذ سلاح ناري وأوراقًا بها تعليمات استخدامه ومتى ..وخريطة لشبه الجزيرة "تورث"..

تكونت مجموعات من حملة السلاح ثم بدأوا يصطفون في الجبهة الأمامية، أما الذين يحملون العصيان انتشروا بين الأكواخ لتأمينها، وكذلك بين الحقول لمنع من يتسلل بين أشجار الغابات..

ورفعت أبراجُ مراقبةٍ فوق بروز الصخور علي حدود شبه الجزيرة ومداخلها، وتغير شكل "تورث رمص" تماماً، وأصبحت وكأنها ثكنة عسكرية حربية، فالصيادون وعمال الحدائق ارتدوا أزياءًا، بدوا فيها وكأنهم جنود، ولكن شكلهم كان وكأنهم ممثلون كومبارس، يصنعون مسرحية هزلية وهزيلة التكاليف.. أنا لم أرتدِ مثلَ هذا الزي مطلقاً، وكان شكلي به مضحكاً جداً، حينما كنت أجربه من أحد المارة الذي كان يمسكه حائراً كيف يرتديه، ودخلت كوخي وأنا أضحك.. مع أنني ما زلت محتفظا بعصاتي القصيرةِ التي صنعتها بنفسي، كأداة حماية وسلاح، وتبدوا كصولجانٍ عسكري".

هنا ضـــحك وبكى "راس رفيج" وخرج من كوخه ينظر إلى حال سكان شبه جزيرته، وحينما هم بالدخول سمع نداء العجوز المهزوز الـذي يعتلي برج المراقبـة، وهو يردد "جـاييين ..جـاييين "، فخرج متباطئاً لأنه يكاد يعرف نهاية هذه التعبئة، فسيخرج كل من بشبه الجزيرة شاهراً سلاحه ولا أحد يأتي بالنهاية }.

{ هذه الســطور أكتبها وأنا في بطن مركب، هو آخر ما تبقي لي في "تورث رمص"، لقد أمسـي حالها حزينا وكئيبا للغاية، لقد آثرت في آخر الأيام الابتعادَ عن الأرض المنبسطة، والصعودَ إلى أعلى التلة لأخْلُوَ بنفســي، فاراً من كل العبث الذي يحدث حول كوخي، حاملاً معيَ إلى أعلى التلة صـوت امرأة تصـرخ مما تراه أمامها، فكانت تقول: إنما هذا ذنب من كنتم تفترون عليهم، حين تسيئون بهم الظن، و تشـكون أنهم جواسـيسُ أو لصـوصٌ.. فتدعون أنكم قوم سـلميون، وتقومون بأبشـع الاعتداءات على من تمسـكون به، ولكن من يذهب بهذا الذنب ؟!!.. ما لا ذنب له.. ياويلي ياويلي..

لازال صوتها يتردد في أذني، وأكاد أرى وجهها الذي لم أره يومها، مفعماً بالألم والعويل بين ثنايا الموج.

رأيت من موقعي فوق التلة بعدما مرت الأيام في ثقل وملل في انتظار القراصنة وهجومهم الذي لازلنا لم نره.. ولم نره بل سمعناه بين الصراخ بكلمة "جاييييين ..جاييييين" والصفير ورنين المعادن وصوت الطلقات التحذيرية وصليل نصول الأسلحة ..ثم أنين رجوعها مجرورة علي الأرض محتكة بالرمال والصخور في خيبة بائسة ويائسة، عشرات المرات بالليل ومرة أو مرتين بالنهار، ولم يكن هذا الشيء العجيب فحسب ولا المحزن على ظهر رمال "تورث رمص"، إنما ما حدث بعد طول الانتظار هو الأكثر من هذا كله..

أغتر حاملوا الأسلحة فيما يحملون وبما أنهم لم يعودوا يعملون ومنشغلون بآمور الحراسة والتأمين وهملوا أكواخهم، إلى جانب استشراف سكان شبه الجزيرة لهم واستضافتهم شبه الدائمة لهم في أكواخهم وكرمهم وإغداقهم عليهم، لتحيتهم على الدور الذي يقومون به وتشجيعهم علي حماية "تورث"، فكانت هذه هى البداية.

تحول الأمر إلى أمور عصابية، غصباً واقتدارا، فيدخلون الأكواخ وقتما يشاؤون، ويأكلون ما يجدون، ويفعلون ما يحلو لهم من باب أن هذه هى أبسط حقوقهم على الناس، ومن يفكر أن يرفع عينه اعتراضاً على الواقع، يزغلل بريق نصل السلاح عينيه، وبالطبع

لم يجدوا أي مقاومة أو مخالفة من حاملي العصي، الذين انقسموا على أنفسهم، فمنهم من جاء مع باقي سكان "تورث" بجانبي أعلى التلة تاركين الميدان خاليًا، لحاملي السلاح يعيثون فيه كيفما يشاؤون، ومنهم من غادر ولم يظهر حتي غادرت أنا.. وبعد وقت ليس بالطويل، سعى حاملوا السلاح إلى فكرة حتى يتعاطف معهم سكان "رمص" ويشعرون بحاجتهم لهم، فكانوا يفتعلون نيرانًا في الأكواخ، بشكل خفي، وكأن من افتعلها هم الجن، ويضربون العجوز المهزوز أو الصبي المعاق ذهنيا، الذين وكلوا بمهمة الوقوف على الأبراج للمراقبة، حتى يصرخا "جاييين جاييين"، ويقسمون أنفسهم إلى فريقين؛ فريقٍ يلعب في الظلام وكأنهم قراصنة والآخرين يلعبون دور حُمَاةِ شبه الجزيرة، وحتي يزيدَ التعاطفُ والحبكة، تأتي مجموعة تحمل واحداً منهم مصاباً، ولكن شيئًا من هذا لم يُجْدِ.

واجتمع معهم كبار سكان "تورث" حتى ينظروا في أمرهم، وكان عصبة حاملة السلاح تجلس رافعة الحاجب خلف المتحدث باسمهم، ودار حوارهم حول أمرين؛ إما أن نفعل ما يحلو لنا، أو نرحل ولا تجدون من بعدنا من يحميكم، ولم يقبل كبارُ القوم هذه اللهجة في الحديث وهذا التهديد، وقرروا بقاء الوضع على ما هو عليه.

ومرت أيام أكثر؛ وفي إحدى الأمسيات الهادئة إلا من ضجيج العصبة، استيقظ النائمون في "تورث رمص" على صوتٍ عالٍ وطلقاتٍ وتلاحم نصول، و رأوا فيما رأوا على ضوء القمر وانعكاس الأشعة على بلورات أمواج البحر، مشادة انقلبت إلى معركة شديدة بين فريقين داخل عصبة حاملي السلاح وقد سقط على اثرها عدد منهم، كشف الصباح عن دمائهم على رمال " تورث"، ولكن أفراد العصبة اتفقوا على أن يعلنوا أن هذا بفعل القراصنة، الذين هاجموا شبه جزيتهم ليلاً وهم نائمون لكنهم صدوا الهجوم بضراوة.

وظلت تلك القصة تتكرر كل ليلة حتى مل سكان "تورث "، فمنهم من رحل عنها خوفاً مما يجري، ومنهم من مات بطلقات طائشة في مطاردات بين أفراد العصبة، ومنهم من مل من الانتظار والعراك كلَ يوم مع أقرانه، في اختلافهم لتحليل الآمور ورحل أيضاً، ومنهم من رحل بسبب أنه لم يعد شيء من ذكرياته في "تورث " باقيا، فلقد احترقت شبه الجزيرة كلها، ولم يبقَ أحد ليحميَها، فلقد تحولوا إلي مسوخ تمسك بأسلحة، بعدما انضم إليهم الفتيان الصغار والعواجيز المسنون، الذين تتساقط منهم الأسلحة، فور سماع النداء، ويزحف منهم فوق الأرض.. ذهابا و إياباً.

ومنهم من أخذ مركبه مثلي بعدما نفد آخر احتمالٍ، كي أبقى وأدون وأوثق ما جرى في "تورث رمص" البائسة الآن، وأتخيل ما حدث بعدما امتطيت مركبي، لقد أنهى الباقون من العصبة علي أنفسهم ومن بقي منهم مات من الجوع أو من العطش أو "طفش" هربا.

فلقد فعل فيهم طول الوقت والانتظار ما لم يكن القراصنة سيفعلونه بهم، وأكاد الآن أتخيل "تورث رمص" وهي تحت أقدام القراصنة، بعدما حطت سفنهم على شواطئها، وهم في ذهول واندهاش من ما حدث بها، والذي كاد يغلب تصورهم لما كانوا سيفعلونه بها، وما من مقاومة أو صريخ رضيع، سوى أصوات الطيور الجائعة التي تحوم حول جثث سكانها القدامى }.

" كان صباحًا منيراً بعد ليلة ممطرة عصيبة قضاها المعسكر، تلك المجموعة من الخيام التي ارتضت أن تُنْصَبَ إلى جوار بعضها حتى تكون معسكرا تستطيع أن تنظمه وتحميه، بسبب ما كان يتعرض له الاعتصام داخل ميدان التحرير من مخاطرَ أمنيةٍ شديدة، وأكثر هذه المخاطر التي لم تكن في الحسبان هو المطر، الذي كان بداياته بشارة خير، ولكن في نهايته تصبح الخيام والأرض "بلة طين".

تجمع الأصحاب أمام خيامهم، ونظروا للمعسكر فوجدوه بحاجة إلي عمل شاق، من أجل تنظيم وترتيب ما أطاح به الهواء والمطر ليلة أمس، وأول ما فكروا فيه هو تناول الإفطار كى يستطيعوا العمل بجد ونشاط، وأرسلوا بعضهم لشراء الإفطار، وخلال هذه اللحظات، انضم إليهم بعض الأصدقاء، المرغوب فيه منهم، والغير مرغوب فيه .

إلى أن خرج من خيمته بعدما رتب جزءا كبيرا منها، ووجد شخصاً لا يرغب في رؤيته، داخلا إلى الخيمة المقابلة، فتمتم ببعض

الكلمات الحانقة، وحاول الذهاب لتحذير الأخرين من هذا الشخص المتطفل، ولكن عزة كرامته منعته أن يحتك بأحد "على الصـــبح"، أو أن يفتعل مشاكل لا قيمة لها.

افاقه من حيرته وانشـــغاله.. حضـــور الطعام، وكان من المعتاد إدخال الطعام إلى خيمته لتوضيبه وتحضيره ثم يفرش علي أرض خيمته هو، لاتساعها، ثم يبدأ جميع من في المعسكر تناول الطعام مع بعضـــهم البعض، وظل الشـــخص غير المرغوب فيه وحده بالخيمة المقابلة وهو دائم النظر إليه، لأنه يعلم جيداً، أنه لن يســـمح له بدخول خيمته أثناء تجمع الآخرين، وهو يعلم جيداً أن هذا غير المرغوب فيه أتى خصيصاً في هذا الوقت، لأنه يعلم أن هذه ساعة الإفطار في المعسكر.

جلس أعضاء المعسكر جميعاً، وشرعوا في تناول طعام الإفطار، إلى أن تنبهت إحداهن إلى أن هذا الشـــخص يجلس وحيداً في الخيمة، وســـألت ما إذا كان أحداً منهم يعرفه جيداً، قال البعض "لا" وقال البعض متشككين "نعم "، إلى أن صعدت فكرة إلي رأس أحدهم بدعوته إلي تناول طعام الإفطار متحاشـــيًا النظر إلي صاحب الخيمة، وحيًا الفكرة كل الجالسين في حين رفضها هو، وقال " عذرا أنا لن أكل معه من طعام واحد"، وتذكر البعض حينها

أنه حاول طرد هذا غير المرغوب فيه بالأمس القريب لأنه يعرف أنه متطفل، ولا يريد أن "تأخذ رجله" على المكان أو يعتاد عليه، ويصبح من أهل المعسكر.

فحاولوا أن يبسطوا من الأمر ويمرروه، إلى أن قال "حسناً فليأتي ليأكل"، وأثناء نداء البعض علي الشخص غير المرغوب فيه، استطرد قائلاً : ولكني لن أكل مع أحد ليس بينه وبيني عمار، وهذا مبدأ لا اخالفه أبدا ولو مت جوعاً ".

وخرج من الخيمة لحظة دخول غير المرغوب فيه إليها، وخرج وراءه بعض المتصورين أن لديهم شيئًا من التعقل وقوة الاقناع ، حتى يغيروا دفته عن هذا الرأي وعن الإصرار عليه، ولكنه واجههم ببعض ما ارتكب غير المرغوب فيه، فلما رآهم مصرين، تمسك هو بمبدئِه وقال : " لن أتنازل عن مبدئي، أنا لا استطيع أن أكسر مبادئي وأجزئها".

فرغ الجميع من تناول الطعام، إلا بعضا منهم لم يكمل طعامه بسبب ما حدث، وظل هو جالسًا شارد الذهن ساعات وساعات، وأعمال المعسكر تجري أمامه و بجواره وخلفه، و عادةً ما كان هو لا يشارك في الترتيب، لأن صحته ضعفت بعد الغاز الكثيف الذي

تعرض له، ومر اليوم ولم يدخل جوفه لقمة، ولا هو يملك مالاً ولا خيارا بترك المكان ثم يذهب ليأكل شيئاً، فقد خرج الجميع لشؤونهم وبقي فقط من يحرس الخيام.

ورغم مجيئ بديله في نوبة حراسة المعسكر، لكنه يعلم جيداً أن المال الذي في جيبه، لا يكفي لإطعام قطة، فهو بالكاد يكفي لذهابه للمنزل، لجلب بعض المال ليستطيع استكمال الاعتصام.

حتي جاءت صديقته التي كانت تتضور جوعاً، بعدما سألته عن ما إذا كان بالخيمة طعام، فلما لم تجد، قررت أن تدعوه إلى طعام شهي.

وهو يأكل داخل المطعم قال لنفسه "هكذا هو الثبات علي المبدأ ". إذا حافظت علي مبادئك تكون جائزتك في النهاية أكبر.

وقال لها ما يدور في خلده وضحكت حتي نظر إليها كل من في المطعم، وقالت: " يخربيت مبادئك إلي هتموتك من الجوع ..كُل كل ".

وتذكر ذلك وهو ذاهب إلى " الميكروباص " ماشياً علي قدميه، حتي يوفر بعض المال لباقي الطريق، وظل ينتظر الميكروباص

تلو الميكروباص، ويترك من تغلو أجرته، ليس لقلة المال ولكنه " المبدأ"، ويترك من يحمل ركابًا زائدين عن الحد الطبيعي.. فالركاب بعضـــهم فوق بعض .. وهو يرفض أن يعامل على هذا النحو المذل.

واثناء انتظاره، تناقش مع بعض الواقفين الذين اقتنعوا بمبدئه والثبات عليه، ولكنهم أدركوا سريعاً أنهم يريدون أن يذهبوا لبيوتهم بأسرع وقت، وهذا ما دار بخلده أيضًا، وهو واقف تحت المطر الخفيف، وأثناء ركوبه ميكروباصا خاليًا من الركاب تماماً إلا منه هو، سأل نفسه : ماذا لو كان قد تحدث مع الآخرين في الحقيقة، كما تخيل ذلك عن مبدأه وليس في باله فقط، ولم يتركهم يذهبون دون كرامة ولا إنسانية، ثم ضحك وهو يقول في نفسه : " ربما كنت لن أجد مكاناً لي في هذا الميكروباص.. أو كنت ركبت أنا وبعض العقلاء الذين أدركوا معنى وقيمة...الثبات علي المبدأ ".

ذات صـــباح ذهب "لا" و "كفاية" ليركبا الميكروباص الذي بدا من بعيد أنه خالٍ من الركاب، وقبل أن يصلا إليه تزاحم عليه الركاب، ولكنه لم يمتلئ بعد، حتى ركبا وظلَا في انتظار الراكب الأخير.. حوالي ١٨ دقيقة، والتي مرت عليهما وكأنها ١٨ يوما، وعندما حضر الراكب الأخير تنفس الجميع الصعداء.

وتأهبوا للتحرك ثم فوجئوا أن الســـائق قد تخلى عن الميكروباص وتركه لحارس الموقف، والذي قال بدوره: " إن الســـائق قد تخلى ولن يتحرك الميكروباص"، فرد عليه " كفاية " ساخراً: " اطلع انت سوق.. فقال الحارس : "دا مش ميكروباصي...أنا مكلف بحراسته بس..".

فقال " لا " : "ماشي ياعم ها سوق أنا... بس نتحرك ..".

فقال الحارس غاضــباً : " لا... يلا ســيبوا الميكروباص من غير "شوشرة" ووجع دماغ .. الميكروباص مش هيتحرك ...".

وفوجئ " لا " و " كفاية " برضـــوخ الناس ونزولهم، دون أن يوفر لهم الحارس ولو أي ميكروباص آخر.. ووقف الناس ينتظرون ..

ذهب "لا" و"كفاية" يبحثان عن ميكروباص آخر، في مكان آخر، إلى أن وقف أمامهما "ميني باص" وبرغم أنه كان مزدحما للغاية، فقد أصر السائق على ركوبهم معه.

وطوال الطريق، كان الســـائق يقف ليركب أفرادا آخرين، وبأعداد كبيرة، إلى أن أصـــبح كل راكب جالس يجلس وفوقه آخر، ويميل آخر على الجالس فوقه، ويقف في ظهر المائل آخر بالممر.

وأصبح الممر مكتظا بالركاب، وكذا بين المقاعد، وبجوار السائق مكتظ، ورغم كل هذا الاكتظاظ، يصر السائق على الوقوف لأناس آخرين ليركبوا معه الـ " ميني باص".

حتى ثار "لا" و"كفاية" وصـــرخا في الســـائق، عندما توقف أمام آخرين، وقالا له "هتركبهم فين فهمنا ولا هتحطهم في جيوبنا"..

فرد السائق: " أنتو حد اشتكى لكم ..!! لو مش عاجبكم انزلوا ".

وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن متأخرًا للغاية، إلا أن الناس كانوا متهاونين وغير مستائين، بل و مصرين على مواصلة الرحلة باكتظاظها الشديد.. تحت شعار "مضطرين".. وتطور الحوار بين السائق وبين "لا"و"كفاية" إلى أن وصل إلى حد التشابك بالأيدي في الشارع، وذلك بعد أن أوقف السائق الـــ " ميني باص" ونزل هو و"التباع" ليتشاجرا معهما ..ورغم شدة العراك فإنه لم يكلف أحد الركاب خاطره لينزل من الـ "ميني باص " ليحول بينهم ويفض هذه الإشتباك، وإنما صرخ الركاب في السائق من نوافذ العربة " يلا ياريس عايزين نروح" وصرخ فيهم "لا" و"كفاية" قائلين: " هتفضلوا ساكتين لحد أمتى..!! ومركبنكم كده زي الفراخ"..

ركب السائق وتحرك "الميني باص" وبعد عدة أمتار قليلة، تعطل الميكروباص نتيجة الحمل الثقيل، واضطر الركاب للنزول دون أن يرد لهم السائق ولو تلك القيمة الزائدة على الأجرة والتي اشترطها عليهم من البداية..

في إحدى الجزر المترامية في البحار، كان يعيش شـعب عجيب، يطعم أولاده كسرات الخبز، رغم أنهم كانوا يستخرجون الذهب كل يوم من المنجم، الـذي كـانـت تطفو فوقـه الجزيرة، وكـان يحكم الجزيرة ملك اسـتولى على الحكم، بعدما قتل الملك، الذي كان هو يعمل وزيرا عنده، وكان يقنع أهل الجزيرة، بأنهم لا يســـتطيعون اسـتخراج كميات أكبر من الذهب الموجود في باطن المنجم، بزعم ألا يثور البركـان الـذي هو في الجهـة الأخرى من الجزيرة، بـل ويدعى وجوب إلقاء الذهب فيه كل يوم حتي يهدأ، وكان ســـحرة الملك دائمًا ما يتكلمون عن اللعنة التي ســـتخرج يوماً ما من هذه الأرض، إذا اختلت موازين المعادلة التي يحاولون الحفاظ عليها، ودائماً ما كان كهنة المعبد يتحدثون عن الوحوش المقدســـة التي تعيش في هذا الكون، محذرين " لو لم يحافظ أهل الجزيرة على الطاعة للمعبد وأخذ البركات من بئر النيران ســـتظهر اللعنة، و دائمًا ما كان قائد العســـس(*) يتحدث عن قوتهم، التي يجب أن يفتخر بها كل أهل الجزيرة وعن البطولات التي يصـــنعها فيالق

(*) العسس: مَنْ يَطُوفُونَ بِاللَّيْلِ يَحْرُسُونَ البُيُوتَ

العسس، والأمن الذي يعيشون فيه بسبب وجودهم وحفاظهم علي رمي الذهب كل يوم في البركان الثائر.

إلى أن جاء يوم، وجد أهل الجزيرة (بعد التفرغ من عملهم) أن مجموعة من العسس تمسك بأحد عمال المنجم وتطرحه أرضاً، ثم تسحبه إلي السجن، ولم يجرأ أحدهم أن يتسأل : "ماذا حدث أو ماذا فعل؟؟.

وبعد أيام قليلة، بدأت الحيرة تؤرق ضمائرهم، فمنهم من أرضى ضميره بقوله: "ربما فعل شيئا خارجًا عن القانون، ومنهم من تكلم عن احتمالية أنه أخطأ في ذات الملك، ومنهم من قال : إنه وقف أمام الكهنوت وتحدى حكايات السحرة، وإنه تكلم في المنجم عن كذبهم وادعاءاتهم حول اللعنات التي تصدر من البركان، ومنهم من حاول إسكاتهم جميعا بقوله : "إنه مجرم، فقد حاول سرقة أكثر من حصته في الذهب".

و ذات ليلة، خرج بعض العمال، يتبينون الحقيقة بأعينهم، فساروا وراء العسس، ليروا إلى أين يذهبون بالذهب بعد خروجه من المنجم، وظلوا يمشون في الظلام الحالك علي ضوء مصابيح العسس، إلى أن جاء من ورائهم مساعد قائد العسس وفيلقه،

وحاول القبض عليهم، فهربوا هنا وهناك، وتمت مطاردتهم في جميع أنحاء الجزيرة، إلى أن تمت محاصرتهم فوق جبل الأرواح، وسرعان ما انتشر الخبر في الجزيرة، وخرج الكهنة إلى الناس مسرعين، يبلغونهم أن هؤلاء قد خرجوا عن طاعة المعبد، وسرقوا ذهبهم الذي يلقون به في بئر النيران، وخرج السحرة منذرين من عواقب اللعنات التي ستحل على الجزيرة، بسبب وجود الشياطين وجواذب الأرواح الشريرة.

"إنّ هؤلاء.. تملكتهم أرواح شريرة" وسوسة السحرة في أذان أهل الجزيرة.

وخرج أفراد بلاط الملك، يدعون الأهالي للذهاب إلى الجبل، ويسقطونهم من فوقه، ومن له أحد من أقاربه في هؤلاء اللصوص، فليقنعه بإرجاع الذهب الذي سرقه، وطعام المعبد الذي نهبوه، وهرع أهل الجزيرة ليروا الذهب الذي سرق والطعام، لعلهم يكون لهم نصيب فيما حرموا منه، وتحول الجبل إلى أناس على القمة، وأناس تتعلق ببطن الجبل يرجونهم ويسألونهم النزول، إلى أن خرج قائد العسس، وأعلن وسط جموع الناس، أنه سوف يلبي رغباتهم وأنه سيحمي الجبل، وهنا، بدأ الناس يدركون أنهم كانوا يُسرَقون، وطالبوا بسجن الملك، فخرج الملك فور سماعه هذا الكلام، وقال:

"إن السماء تحرس ملكي، ولقد حافظت على بقاء الجزيرة هادئة، ولو تخليت عن ملكي، فسوف تحل اللعنات على الجزيرة".

ورغم هذا الكلام، فقد تعالت أصوات الناس، ورشقوه بالحجارة إلى أن هرب إلي قصره، وعلى الفور تقدم العسس إلى القصر، وحملوا الملك وسط فرحة عارمة من الجموع على سرير قماشي، سعداء بانتهاء عهد النحر والظلم، وفي جنح الظلام أخذ قائد العسس، الملك وصعد به البرج العالي المترامي في أخر الجزيرة وألقى به بعيداً عن عيون أهلها، وعلى ضوء بدر القمر، جلس سحرة الملك وبلاطه وكهنة المعبد يحتسون أفكارا شيطانية، وفي الصباح وقف قائد العسس يخطب في الناس أن تذكروا حمايته لأهل الجزيرة وحفاظه على هدوء البركان من الثوران في هذه الليلة العصيبة، وأنه يجب عليهم أن يجتمعوا لاختيار ملك آخر، مؤكدًا أن حب العسس لدى أهل الجزيرة، يسمح باستمرارهم في تولي شؤونها إلى أن يختاروا من بينهم ملكا آخر..

وفي برد الليالي ودفئ الأسواق، كان يمشي الكهنة بين الناس يدعونهم إلي طاعة المعبد، حتي لا تظهر اللعنات والوحوش المفترسة، وفي الليالي السوداء وفي غيبة القمر، كان يحوم دخان السحرة حول البيوت، فينشر حكايات وحش البحر الذي سيخرج

عليهم بسبب ما فعلوه بالملك، وسكوتهم عن الذين يتحدثون بين الناس، أن الذهب لا يرمي في البركان، و أن كل هذا الهرج سوف يقلق وحش البحر، وأن لا سبيل لقتل الوحش إلا أن يتركوا البركان يثور ويقضي عليه، ووقتها ستدمر الجزيرة، وبدأ الناس في تصديق ما يردده السحرة والكهنة ويتحدثون به بينهم، حتى أنهم ندموا على ما فعلوه في تلك الليلة، إلى أن وصل بهم الحال حد أنهم كلما رأوا المتحدثين رشقوهم بالحجارة، وجاء رجل من أقصى الجزيرة يسعى، قال: " يا قوم اسمعوا لهم واتبعوا المتحدثين، و لا تصدقوا الأكاذيب والخرافات، فلا وجود للعنة البركان ولن يثور أصلا، ولا ذهب يرمى سوى حصصكم الضئيلة، التي ترمونها تبركا في بئر النيران، التي لا وجود لبركتها، هل سمعتم يوماً صوت غليان أو انفجار في باطن الجزيرة؟؟!!؛ ولا وجود لوحش البحر، إننا نعيش في البحر منذ عقود ولم يظهر، ولماذا سيأتي إلى الجزيرة ؟! إلا لو استدعاه أحد، وشاور بعصاه على معابد الكهنة والسحرة، وظل المتحدثون، يمشون في الأسواق، ويمرون على البيوت، محاولين نشر الوعي بين أهل الجزيرة، ولكن الخوف تملكهم وتمكن منهم، وظلوا كل يوم يتجمعون في دوائر، يشاهدون أحد المتحدثين وهو يسحل أو يضرب في عرض المدينة، حتى و لو كان هذا

المســـحول امرأة، ودفعهم الخوف إلى حد لوم المتحدثين، بل ومساعدة العسس في إيلامهم وإيقاع العذاب بهم..

وفي ليلة بدر تعج بالغيوم أضـــاء مصـــباح في أعلى البرج، وفي الصباح خرج قائد العسس يخطب في أهل الجزيرة أن جاء الآوان ليختاروا ملكا منهم على الجزيرة، حتى يتفرغ العســـس لتأمين البركان، وفي اليوم الثاني فوجئ أهل الجزيرة بفرمان يذاع في الأسواق:

"على من يرى في نفســه الكفاءة ليكون ملك الجزيرة، فليقف على الهضبة العالية التي أمام قصر قائد العسس، ليعلن عن نفسه".

وبعد ساعات مر الناس على الهضبة ليشاهدوا من تقدم وصعد الهضبة، وجدوا أحد السحرة وأحد الكهنة وأحد عمال المنجم وأحد المتحدثين وأحد قضـــاة المدينة وأحد المتمردين وآخر من بلاط الملك وآخرين، وبين يوم وليلة أعلن عن الملك الجديد، فلم يكن من بلاط الملك ولا من السحرة أو الكهنة، حيث وقف قائد العسس ليعلن عن افتخاره بحرية اختيار أهل الجزيرة..

وأعلن تنصيب الملك، وأمام الجموع ذاع القائد أن شرط تنصيبه ملكًا، أن يذهب إلى البحر ليقتل وحش البحر، قائلا: "دون أن

يستعين بأحد العسس لأنهم سيكونون مشغولين بأمور استخراج الذهب ورميه في البركان، ودون الاستعانة بأحد الكهنة، لأنه سيصلي من أجلك، وأنك لن تستعين بأحد من السحرة بالطبع، حتي تكون قد هزمته بإيمانك و ليس بالسحر، ولا تستعين بأحد الموحدين لأنهم يطالبون بالاستقلال عن قصر الملك"..

وأخذ الملك الجديد الوثيقة التي تحمل شروط ملكه في يد، وحربة وسيفا في اليد الأخرى، وقبل أن يتوجه إلى البحر نادي عليه قائد العسس، وقال له: "إن لم تقتل الوحش، فسوف يحولك السحرة إلى" أراجوز"، و تعلق على العربات وفي الأسواق وعلى أبواب المدينة، ويلعب بك أفراد العسس.

ابتلع الملك الجديد ريقه وتقدم نحو البحر.. في الطريق إلى أول ليلة في حياة الأراجوز..!!

" فيلم .. الطيور الجارحة "

مضت ليلة طويلة بعد نقاش شديد، فقد قضي عمر الليلة كلها في بحث كيفية الذهاب إلى الإسكندرية، هل بالسيارات الخاصة أم بالميكروباص، ويرجع هذا الجدال إلى الخوف من اللصوص وقطاع الطرق وكذلك كثرة اللجان الشعبية على الطريق، وما يدرينا بحالهم أهم طيبون أم أشرار ، وكدت أصرخ فيهم: "علينا أن نذهب حتى ولو بالمزلاج أو بالجمال.. نذهب بأي طريقة خلقها ربنا.. المهم أن نذهب..

وانتهت الملحمة الجدالية، بعد أن انتهوا إلى الذهاب بالميكروباص.. فلقد كان لحظر التجول ولياليه تأثير كتأثير السجون وعقاب حبس لم يفعله الآباء من قبل، ولا مفر من الترويح عن النفس والبدن في بلد الحظر فيها مطلوب في الصيف.

وبعد انتظار أفراد المجموعة مدة كانت أطول من المدة التي يستغرقها مشوار الطريق ذاته، تحرك الميكروباص أخيرًا، بعد ثلاث محاولات فاشلة للتحرك، فإن كل منهم استيقظ في الوقت الذي على هواه ولم يلتزم أحد بالموعد المتفق عليه ليلا، و حتى

أن الذي التزم منهم، كان قد نسى نصف متعلقاته قبل أن يأتي مسرعاً، وقد اضطررنا للذهاب إلى منزله مرة أخرى لجلبها، وفي النهاية تحرك الميكروباص..

لم أجد خير صديق للطريق، سوى زجاج الشباك الذي يحمل صورتي المعكوسة، فمن لم ينم منا، اتخذ من المقاعد سريرا له، ومن لم يكمل حلمه دخل في صراع مع مطبات الطريق إلى أن يصل.

وكان شغفي بالأفلام الأجنبية هو أكثر ما يؤرقني في هذه الرحلة، فهل المَسكن الذي سنذهب إليه به تلفاز يحمل قنوات أفلام أجنبية..؟، ولعل هذا ما جعلني مسرعا أنتبه إلى الشاشة التي بجوار مرآة المنتصف فوق رأس السائق، تلك التي كانت مطفأة طوال ما فات من الطريق، الذي كان يشق سكونه صوت عذب لقارئ يقرأ آيات العزيز القدير.

الشاشة كانت تعرض بداية لفيلم أجنبي، بدا من "تتره" العارض لفريق العمل، وأسلوب "دخلة" الفيلم والحياة الريفية التي لا تشبه أي بلد عربي، و كذلك الصورة الواضحة التي ظهر بها، أنه على عكس سنيماتنا العربية، وكانت الصورة على الشاشة تهتز كلما

كانت العربة تقفز، بل لم تكن الصورة فحسب، فقد كان كذلك كل أصدقائي الذين بدوا وكأنهم سيسقطون من فوق المقاعد.

فكان الطريق به نتوءات كثيرة، جعلت صورة الفيلم غير مجدية للاصرار على مشاهدتها، فعدت إلى الوراء، حيث صديقي الجالس خلف الزجاج، و بعد لحظات، وجدت كل الأموات الذين كانوا مترامين حولي في هذه الطائرة التي تمر بمطبات هوائية بين حين وآخر، وجدتهم قد استيقظوا وجلسوا منتبهين، وعندما تعقبت نظرات انتباههم، وجدتها مثبتة على الترجمة التي أسفل الشاشة، وعلى الرغم من صغرها، فقد حاولوا جاهدين فهم أحداث الفيلم، وعلى العكس من ذلك، فقد استندت هى إلي صديقتها القابعة خلف الزجاج، حيث كانت تحشر سماعات هاتفها السلكية لتسمع بعض الأغنيات.

ساعدتني معرفتي باللغة الأجنبية، على معرفة ما يدور خلف زجاج الشاشة، لقد كان فيلمًا عن قرية بسيطة هادئة، ولكن خطب ما حدث لمواشيهم كان جليلا، حيث اكتشف أحد المزارعين أن بقرته ليست بصحة بجيدة، وعلم قسيس القرية بالأمر، ولا أعرف لماذا حدث بينهم اتفاق ضمني على بقاء الأمر سراً ؟!، وسرعان ما انتشر المرض بين باقي البقر، ولم تتضح ماهية هذا المرض،

ولكن بين حين وآخر، كانت تأتي بقرة وهى جيفة ميتة، أو شارفت على الموت.

ووسط اندهاش وانجذاب الركاب للفيلم، أتى فاصل إعلاني، وكان أول إعلان عن علبة لبن، ويدور حول تصرفات غبية لبقرتين.. ثم يفجرهما الإعلان، ويقول في النهاية "وعشان كده شيلنا البقر ..من على العلبة"، ومن العجب العجاب، أنه استخدم ديناميتًا للتفجير، ليزيل رسم البقرتين من على العلبة، وقد أثار الإعلان ضحك كل الموجودين في الميكروباص، من فكرة الإعلان، والتوقيت الذي ظهر فيه، وكأنه "إفيه" أو نكتة مقصودة .

كنت قد جنحت إلي نوم خفيف أثناء الفاصل، وعندما استيقظت وجدت الأنظار جميعها أكثر انجذابا للفيلم، وتكاد تكون جاحظة العينين، على الرغم أن المشهد، ليس سوى لطيور تجري وراء أشخاص، وبعدها بقليل عثر هؤلاء الأشخاص على سيارة، ظآنين أنهم هربوا من الطيور، وشرعت في السؤال عن سبب انجذابهم إلي هذا الفيلم!!، فلم أسمع منهم سوى ""شيييشش".

العجيب في الأمر، وبعد نجاة الأفراد وهربهم بالسيارة، عادت الطيور إليهم لتهشم زجاج السيارة، وهنا العجب العجاب، فقد كان

من الممكن للسائق، أن يسرع كما أسرع الآن سائق الميكروباص، لأن الطريق أصبح ممهداً، ولكن السائق دخل في حقول، تربتها طينية، وظل يدور في دائرة مفرغة حول نفسه، إلى أن دخل في حقل ذرة علي حد ظني، وتعطلت السيارة، فخرجوا بمنتهي السهولة، وهم يحملون أسلحة وبنادق، لكن أكثر ما أدهشني أن طلقات تلك البنادق لا تنفذ، بالرغم من أن الطيور الجارحة لم تكن بتلك القوة لتميت أحدهم، ولكن كثرتها وتجمعها هما اللذان يمنحانها القوة، كفعل قطرات الماء المتكاثرة والمستمرة، والتي تستطيع مع كثرة التكرار أن تفلق حجراً أو تصنع ثقباً في رأس مناضل في معتقل، فهممت متعجبًا، من كل الذي ذكرته الآن، ولم أسمع منهم سوى صوت مطاردة الذباب.

لم اقتنع بالفيلم، ومع ذلك ظللت معهم، أراقب انجذاب رفقاء الميكروباص له، وحديثهم عنه، وتساؤلاتهم وتفسيراتهم، وكأنه عمل واقعة مصور، وكأنه ليس فيلماً للخيال العلمي، يلعب فيه المخرج الدور الأساسي، وكل مشهد يثبت هذا.. ولكن لمن؟؟، لمن يعي ذلك ويدركه فقط، ثم وجدتني انتبه لمشهد، ظهر فيه ممثل يضع لحية ؟؟..حقيقةً.. لم أتبين ذلك جيدا، أظنه أيضاً لم يتضح لي، من لبسه وهيئته وشكله العجيب، هل هو كاهن ؟؟ أو قسيس ؟؟ أو سلفي بلحية صفراء، بانت وأنها غير طبيعية تماما "راكور"،

وعندما أعملت عقلي، تذكرت أن هذا هو القس الذي ظهر في بداية الفيلم، وكان يروي قصـــة عن بداية الأزمة، حينما مرض البقر وأخفوا ســره، واتضــح لي أن "جنون البقر" هو ذاك المرض الذي أصيب به البقر، وبعدها نفق البقر كله ومات جميعا، وحاولوا أن يخفوا جثثه، فنبشـــت الغربان الحفر التي دفن فيها، فأخذ أصحاب البقر جيف البقر المنتنة، ثم أحرقوها.

وذكر القس: "يبدو أن طعم البقر قد أعجب الغربان، فأكثروا منه، فانتقل المرض من البقر إليهم "، وعندما احرقوا تلك الجيف، ظنوا أن ذلك ســـوف يطرد الغربان، فلم تجد الغربان ســـوى البشـــر، فاستدارت إليهم لينضموا إلى قائمة السلسلة الغذائية.

فرد عليه ممثل آخر قائلا: كنا نســـتطيع أن نحل المشـــكلة من بدايتها، لو أنكم أعلمتمونا بحقيقة الأمر، ولكنكم تســـببتم في قتل الكثيرين، رغم علمكم بالأمر منذ البداية.

تلك الكلمات، جعلتني أنظر خلف صديقي الساكن بزجاج الشباك، وعندما انتبهت وجدت أصدقائي يتحاورن حول ما فعلته الجماعات التي تجوب الشوارع الأن، وفسر كل واحد منهم الأمر وفق رؤيته هو للآمور، وتنافســوا واختلفوا حول من أصـــاب في توقع ســير

أحداث الفيلم، وهممت أن أذكرهم بكلامهم السابق بالأمس القريب، و الذي هو على العكس تماما من ما يرددونه، ولكن لم تسعفني قوة ذاكرتي على فعل ذلك..

أخرجت من جيب حقيبتي ورقة، أردت أن أدون بها بعض الأفكار والمواقف، التي لا أريد أن أنساها، لأنني أصبحت وعاء نسيان بطريقة تثير الغثيان، وكدت أن أنتهي مما أكتبه، فإذا بالميكروباص يهدأ من سرعته، استوقفنا كمين حظر تجول، كان قد أغلق الطريق في غير مواعيد الحظر المعتادة، وأخبر السيارات، أنها لن تنال مبتغاها الأن، متعللا: "أنه ثمة اشتباكات وأحداث عنف شديدة متوقع حدوثها على الطريق".

استدارت السيارات واستدار معها ميكروباصنا، عائدا، فكما آتينا رجعنا، وبعد فترة من الندم على سوء الحظ، عادت الشاشة مرة أخرى لتعرض فيلما آخر، كان فيلما مشابهاً لفيلم رحلة الذهاب، ولكن الجارح فيه خرفان بدلاً من الغربان، قطعان من الخرفان قد أصابها مرض، جعلها تنهش وتأكل البشر..

وعادت السيارة للتأرجح مرة أخرى، كسيرتها الأولى، لكن هذه المرة، حدث شيء عجيب.. لقد كان الفيلمان يتداخلان كلما

تأرجحت السـيارة، فتتداخل الصـورة، مرة قطيع غربان ومرة قطيع خرفان وكأنهم ينهشـون بعضـهم أو القطيعان ينهشـان في البشـر، وكان هذا ما يحدث من البداية في رحلة الذهاب، حيث كانت كلما قفزت السيارة، اهتزت الشاشـة، ولكن لم يلاحظ أحدهم ذلك، لأنهم كلهم أصبحو نائمين.. من أثر رحلة الذهاب وسهرهم ليلة البارحة، حينما كانوا يشاهدون أفلاما آخرى..

"ملحد.. في سيدنا الحسين"

في إحدى الليالي الرمضـانية.. وبعد تناول طعام السـحور، حيث امتلأت بطونهم، أسند كل منهم ظهره إلى كرسيه، فانبعج كرسـي المقهى من ثقل الزبون، وتسـاءل أحد أصـدقائي بعدما نفث هواءً من فمه المعطر برائحة البيض والبصـل وكأنه تنين مجنح ينفث ناراً، ربما كان هذا من فعل "الشـطة" أو انتفاخ المعدة من البيض، قائلا : أين سنصلي الفجر ؟!!.

ولا أعرف سبباً واضحاً لرمقته لي بطرف عينه، ثم دوران عينه إلى صـديقنا الآخر، مروراً بي، ثم ظل ناظرا إلىَ بابتسـامة ... ربما لأنني ملحد.. وكان يخجل مني أو يريد أن يصطحبني معهم رغماً عني..

رد عليه صـديقنا الآخر (ولم أتوقع منه تلك الإجابة مطلقاً والتي تحمل في طياتها وجهين، قائلا :" الحسـين ... إيه رأيكم نروح نصلي في الحسين؟".

فكلمة "الحسين" تلك، تعني أمرين متناقضين يمثلان حال المنطقة هناك، وكلمة "الحسين" أيضًا هي إجابة لشخصيتين متناقضتين، فهو إما ذو خلفية صوفية ويريد أن يزور مشجد الحسين، وفي تلك الحالة كان لن ينطق بها هكذا، بل كان سيقول "سيدنا الحسين "، كما قالها أمامي ذات مرة والدي الصوفي..

أو هو سواح، يحب أن يجلس على مقاهي منطقة الحسين الكائنة حول المسجد..

واتفقوا على الذهاب إلي المسجد الأثري.. متحاشين رأيي ومتحدثين أمامي: " إنها مجرد زيارة للمنطقة الأثرية، ومن يريد أن يصلي فليدخل المسجد"، مهونين الآمر علي، وكدت أنفجر ضاحكا من طريقتهم في عرض الكلام وقلقهم من الدخول معي في مناقشة..

كان الطريق خاليًا من زحام الناس و السيارات، ولكنه كان ممتلئًا بهواء عليل ونسيم جليل، وأول ما تبدلت رائحة النسيم إلي رائحة " دقة وبن" وتغيرت أشكال المنازل من عمارة أوربية إلي عمارة إسلامية.. دبت الحياة في الشوارع مرة أخرى، بعد موت وسكون المنازل والحوائط الزجاجية التي تفصل بين الحضارتين..

وإذا بـــ "ميكروباص" يقطع الطريق أمامنا، وظل صديقي عاكفاً على اســتعمال " كلاكس بوق الســيارة"، لأجل أن يتحرك ســائق الميكروباص أو يفســح لنا منفســا نمر منه، فتحت زجاج الســيارة الكهربي أكثر فـأكثر لأتبين الحوار الـدائر الـذي يعطـل ســـير الميكروباص، فالمنظر مريب وعجيب للغاية، فنصـــف الركاب نائمون على زجاج شــباك الميكروباص، والنصــف الآخر يلتفون حول اثنين يتشــاجران إثر مشــادة كلامية نشــبت بينهما ويبدو أن السائق كان أحدهما..

واتضـح ذلك جلياً من التفاف الناس من حوله، وتعبيراتهم المترجية له، لأجل التحرك بالميكروباص مرة أخرى، حتى يدركون إمســاك السحور في بيوتهم قبل الفجر، ولكن هيهات هيهات، فالسائق يبدو أنه يحمل رسالة يجب أن يكبها "كلها" على الزبون..

وفجأة.. إذا بشخص يدس فمه داخل زجاج شباك سيارتي المفتوح، وظل يضرب كفًا بكف، محسبناً ومتعجباً من حال الناس : "حسبي الله ونعم الوكيل، الناس جرلها إيه!!..قال إيه البيه الســواق.. مش عايز يطلع بالســـيارة إلا وهى كاملة العدد، والراجل عايز ينزل يصـــلي.. طيب ليه ما قالش كدا من الأول!، قبل مايحمل، هو جاي دلوقتي ينزل، بعد ما قرب يحملها ويكمل، طيب الراجل عايز

ينزل يصـــلي هتمنعه يقضـــي فرض ربنا.. ولا إيه ياعمنا.. بس برضـــه الســواق عنده حق، يعني يطلع بالعربية فاضــية ودا رزقه برضـــه.. لأه ما ينفعش يمشـــي ناقص العدد..الله وبعدين الراجل ميعرفش إن الميكروبـاص هيقف يحمـل لحـد الأدان فعـايز يلحق الصلا".

ثم نظر إلى الشجار ويستطرد قائلا : " السواق برضه معذور، لسه هيقف تـاني إلى حـد مـايجي زبون، وهو في أمس حـاجـة للجنيـه الواحد في الأيام دي..العيشـــة بقت غالية نار، وكمان الأســـعار والبنزين وغيره، يعني هجيب منين ... دانا يابيه".

وقبل أن يخوض في همومه الشــخصــية على صــوت الشــجار بصوت السائق الذي يتساءل متعجبًا: "أنا عايز أفهم دلوقتي، أنت ركبت ليه من أصله، ونزلت ليه..؟.

فرد الراكب : "وأنا يعني نزلت من سفينة نوح ؟!!!".

فرفع السائق صوته أكثر : "ياعم بطل لماضة واركب.. "ثم يضرب بيده ســطح الســيارة وهو يقول " أنا مش طالع بيها وهى ناقصــة عدد.. هتركب يعني هتركب..".

فرد الراكب الفصيح : " أنا مش راكب.. هي طيارة ما ينفعش تطلع بيها ناقصـــة.. أنا هروح أقضـــي فرض ربنا وأعد أنت هاتي مع نفسك هنا..".

وفور إنهاء الراكب لهذه الكلمات، خرج صـوت الأذان، فكان خير سبيل لفض هذا الاشتباك، وظهر الضيق والحنق علي وجه السائق وهو يفتح بابه بحده، ثم يركب ليتحرك بالسـيارة مفسـحا الطريق الذي عطله، ثم نزل مرة أخرى والأذان يتردد، منادياً على منطقته التي ينقل الركاب إليها.. ثم سكت بسبب ارتفاع صوت الآذان..

وفي هذه الأثناء، وبينما كنا نمر بجوار الميكروباص، إذا بنا نرى الذي كان نائما على الزجاج قد استيقظ، فإما أن يدرك شـربة ماء قبل أذان الفجر، وإما أن ينظر في سـاعته.. ليتحقق من توقيت أذان الفجر، ما إذا كان هذا فعلا أذان الفجر أم أنه يتهيئ له..

و بدا التردد واضـحا على وجوه البعض، إبان محاولتهم سـؤال السائق عن رغبتهم في إدراك صلاة الفجر، ولكن السائق كان في حالة مخيفة وميؤوس منها..

وبعد انتهاء الآذان، أعلن السائق : "اللي عايز يروح يصلي ياخوانا يروح ..أنا واقف لحد ما تخلص الصلا، أما نشوف هنحملها في ليلتها دي إزاي ..".

وتردد البعض في النزول، خوفاً من عدم إدراك السائق بعد خروجهم من الصلاة.. وظلوا ينظرون في حيرة إلى بعضهم البعض.. فيما تحرك رجل كبير في السن، وقال للسائق وهو ينزل رابطاً على كتفه :

"الناس هتخرج من الصلاة دلوقتي يابني، وهتحمل وهتفرج إن شاء الله..".

نفث السائق دخان سيجارته في الهواء، ووقف صامتاً، انتبهت ووجدت أننا لازلنا واقفين، نشاهد ما يحدث، لأن صديقنا قائد السيارة مهتم بما يجري، فدفعه صديقي الآخر بيده حتى يتحرك ويدركوا صلاة الفجر، وأخيرًا.. وفي الطريق تحدثوا معي حول موضوع دخول المسجد، وقالوا لي عليك أن تتوضأ معنا لتدخل المسجد وتنتظرنا بجوار الأحذية، وتركوا لي الخيار في أداء الصلاة من عدمه، فتلك هى حريتي الشخصية، كان الحوار متخذاً شكلا بين الجدية والسخرية والضحك المتبادل الثنائي والنكات

وليدة اللحظة، حول موقف الملحد الذاهب للصـــلاة في "ســـيدنا الحسين"..

صـرنا في حيرة من أمرنا، أين سـنركن السـيارة!!، فشـبكة المافيا الحزبية الخاصة بركن السيارات، وما يسمى بـــ"السايس"، قد قسموا المنطقـة إلي إقطـاعيـات، وكـأنهـا عطـاءات ومنح من الملـك، وبأســـعار ســـياحية، بل والأدهى أن الدفع لابد وأن يكون مقدماً.. وأخيراً توقفنا في مكان بعيد عن السادة "السُيَاس"..

وبعدها بلحظات قليلة، لاحظت أن صديقي الآخر، و بعدما ترجل من الســـيارة، قد توقف فجأة، ناظرًا إلى الســـماء، فســـألته عن السـبب، وأتضـح أنه كان ناظراً إلى المبنى المواجه لنا مباشـرة، ثم أشار نحوه قائلا : "تخيل أن دا مبني عمره ٣٠، ٤٠ سنه" استدار إلى أخر" ودا مبنى عمره ٦٠٠ ،٧٠٠ سنة ..".

وكان أشـار إلى أحد المباني التي يرجع بناؤها إلى العصـر القريب وكان يبدو مهترءًا ومهملًا وقديما..أما الآخر والذي يعود بناؤه إلى العصـر الفاطمي أو العباسـي فقد كان شـامخاً رغم التاريخ الطويل الذي مر عليه..

كان منظر المسجد مبهراً في أضوائه وتصميماته و إطلالته الروحية، غير أن كثرة المباني من حوله قد أثرت على ذلك كثيرا، فقد أحاطت به كراسي المقاهي من كل جانب، أما مدخل المسجد كان يحمل قضية فلسفية عميقة، لو أردت التفكير فيها لاستغرقت طويلا، ولكن أمر الباعة الجائلين بل والشحاذين، فإنه لا محالة سيزعجك على نحو ما، خاصة أولئك الذين يتراصون على جانبي المدخل، وكأنهم قطرات من "تفل شاي" قد تناثرت على لوحة معمارية، وفي هذه اللحظات، خرجت من حجرات عقلي ومن بين أركان ساحات العرض السينمائي برأسي، صور الذكريات مع جدي، أتذكرها وكأنها تبدو لي بجودة صور قديمة، كبدايات تحميض الأفلام الملونة، عندما كان يصطحبني جدي لزيارة هذا الصرح الكبير.

لقد كان منظر الناس وهم يتحركون مسرعين، من مكان الوضوء "الميضا" إلى باب الجامع الجانبي، كان هو المنظر الوحيد الذي لم يتغير منذ آخر ذكرياتي، ما الذي يدفعهم للركض هكذا، وسط بلل أجسامهم والأرض الرخامية تحتهم، فقد يقضي هذا البلل على حياة أحدهم لو انزلق، وهو كراقص "بالية البجعة البيضاء" في بحيرة البجعة، ثم حدثتني نفسي : "لن يتغير هذا الشعب أبدا،

سيظل متأخرا عن العمل أو الصلاة سيان، ثم يهرول مسرعا في آخر اللحظات، وهو "مزنوق"..

اصطف الناس في الصلاة و بينهم أصدقائي، ووجدت أحد المصلين يدفعني للدخول في أحد الصفوف لبدأ صف جديد، فوجدت نفسي بينهم، رغم مقاومتي الناعمة، أفعل كما يفعلون، وكنت لن أفصح للرجل أنني لن اصلي مثلهم، فهذا كان مس جنون، وبمرور الوقت، كنت أتذكر تلك الحركات التي دائماً ما كنت أؤديها وأنا لا أعرف معناها أومغزاها، لم أعد أتذكر الكثير حتى أشغل به المواضع الصامتة بين حركات الصلاة، ولكن أذني كانت مشدودة ومنتبهة، لما أسمعه من تمتمات المصلين من حولي، كانت مترجية، خاشعة حد البكاء، نظرت إليهم في صلاتهم، فألفيت الوجوه متذللة ومترجية أحدًا ما، وكأنه موجود فوق رؤوسهم، نظرت فوق الرؤوس ربما أجده، فلم أجد سوى أضواء المسجد الهادئة، ولكنني دون أن أدري شعرت بإحساس غريب، عندما بحثت في ثنايا الجو فوقنا، لقد أحسست أنه هناك موجود بالفعل، ولكنه غير منتبه لي، أو أنه لا يريد أن ينظر إليَّ.

كان بداخلي تحدٍ شديدٍ، لإثبات أن كل ما يشعر به الموجودون في هذا المكان، وما أشعر به الآن لهو مجرد انطباعات وانعكاسات

على مرايا إحساسهم، وكلها معتقدات كأية معتقدات تراها في أي معبد عكف الناس على الذهاب إليه والتعبد فيه، ويحيط بهم جو من كلمات غريبة مرتبة بشعرية، لتبدو مقدسة وقصص وأساطير، ولكنني جئت إلى هنا لسبب ما، ولأني بحثت عن الحقيقة ولم أجدها، فأعتقد أنني جئت إلى هنا لأجد شيئًا ما يوصلني إليها.

انتهى المصلون من أداء العبادة، ثم انتبهت إلى نفسي فإذا بي لازلت واقفاً، منذ الركعة الثانية، فلقد سرحت وأخذتني الوجوه الخاشعة واستبحرت في موج تفكيري في وجوده.

وظن المصلون من حولي أنني أطيل الصلاة من فرط خشوعي، ولم يلحظوا أمر سهوي وسرحاني، خاصة أنني أكملت الحركات إلي سلام نهاية الصلاة بسلام وتمام.. بعدها التقيت مجدداً وأصدقائي، فصرح أحدهم بأنه ثمة غرفة في المقام تحوي متعلقات للرسول "محمد"، قالها متهكما، ومتعللا أن الناس يأتون إلى هنا وكأنهم دخلوا الكعبة، ثم ذهبنا إلى الباب المعدني الموصد في أول المقام، تذكرت وأنا في صحبتهم إلى باب المقام بعض الكلمات التي دارت برأسي عن بركات هذا المكان، وهي أنه قد تأتي لك رسالة على لسان أحد دراويش المكان أو أحد الصالحين الرواد الذاهدين الدائمين على الزيارة، أو أن

يقابلك أحد لا تعرفه وكأنك تعرفه أو هو يعرفك أو شـــيء ما أي كان، فهو في النهاية على حد الشـائع موقف إعجازي أو عجيب، يوصـل لك رسـالة، ترشـدك إلى طريقك في الحياة أو مع الإله .. لا أتذكر أين ســـمعت تلك الكلمات أو ربما شـــاهدتها في أحد المسـلسـلات التلفزيونية، ويبدو أن تلك الفكرة قد احتلت جزءاً من عقلي وصـدقتها تماماً، لأنني كنت أمشـي متطلعاً في كل الوجوه منذ أن دخلت المكان، ومنتظراً تلك الرســـالة على الرغم من ذلك التخوف العميق لقاءها بالفعل.

وصـــلنا إلى باب المقام وانكب أصـــدقائي على باب "متعلقات الرسـول" حسـبما أسـماه زوار المقام، ليروا متعلقاته فعليا، وظللت واقفاً، أبحث معهم عن ما يبحثون عنه، ولكن الغرفة كانت مظلمة وكان البحث دون جدوى، إلى أن لمحت أحدًا ينظر إلينا من جهة يميني، ينظر وهو واقف عند عتبـة بـاب المقـام، و للوهلـة الأولى تخيلته بجلباب أبيض و لحية بيضـــاء وســـبحة طويلة، فقد كانت الصورة تدور في عقلي وتسيطر على تفكيري، كذلك قبل أن أنظر تجاهه..

ففوجئت أنه أحد الفنانين المعروفين وهو صديقا لأصدقائي، و ظل واقفاً ينظر إلينا متعجبا، وبدا وكأنه يريد أن ينفجر ضـحكاً، ولكنه

تحدث جاداً؛ وقال: "حينما تدخلون المقام، يجب أن تلقوا السلام على صاحبه، هل تفعلون ذلك عندما تدخلون بيوت أحدكم، هناك طقوس تقومون بها احترامًا لأهل المكان وأصحابه، ثم تقرأون الفاتحة لصاحب المقام، فهذه هي الطقوس المعهودة هنا، لكنكم دخلتم وكأنكم سياح..".

ظل الرفاق يتحاورون معه حول المكان وتاريخه وقصة صاحب المقام، وأنا أنظر إليه بتمعن، وبينما هو يتحدث، فأنا بيني وبين نفسي لازلت أبحث عن الحقيقة، وكل ما يدور برأسي، أن كل الذي يحدث هنا ليس سوى عادات وتقاليد، تعود عليها البعض، و تربوا عليها ولكن كان في المكان شيئ ما لا أعرف كونه أو تفسيره، وفسرته فقط على أنه ربما من تاثير الحالة التي يمر بها الناس على انطباعاتي أثناء حديثهم عن المكان، إضافة إلى ما خطر بالذاكرة و دار بها، وكلما هممت أن افتح قلبي ليغزوه ذلك الشعور، يقاطعني أحد الشحاذين أو طالبين البركة.

قديماً.. حكى لي والدي أن هذا المكان به أناس يعكفون علي عبادة ربهم فقط، ويأتيهم رزقهم من حيث لا يعلمون أو ربما شاهدت هذا أيضاً في مسلسل آخر، ولكن الذي أراه الآن من أمور الشحاذة والتسول داخل المقام.. ورغم أني ملحد، فإنني لا أتقبله،

ولا أتقبل هذا الأســـلوب في التعامل مع المقام المقدس، من تقبيل المعدن والتمســح به طلبا للبركة المزعومة، فلم أشــاهد أحدًا عليه سمات الوقار والإيمان والعقل يفعل هذا، ولا أرى أي منطق في ما يفعلون .

لم يقل لي أحد ماذا علىَّ أن أفعل داخل المقام، فرفعت يدي للدعاء على ســبيل التجربة، كما كان يفعل جدي، تلك الصــورة القديمة في ذاكرتي، في الوقت الذي وقف فيه أصدقائي، يشاهدون المقام، ويبحثون جمالياته وبدا لي وكأنهم يريدون أن يشاهدوا النائم بداخله.

طلبت منه إن كان موجودا أن يشــعرني به، فلم يكن بمقدوري أن أراه، طلبتها مرة واحدة، وكان بداخلي كبرياء وتخوف، لا أعرف مصــدره ولا ســببه، ربما هو ذاك التخوف الذي يأتيك قبل أن تكتشــف الحقيقة، فقد كنت خائفًا من عدم ظهوره، قدر خوفي من ظهوره.

ولعل هذا ما دفعني للبعد عن الإنسياق في أي حديث مع الزوار، واكتفيت بالابتسامة أو الإماءة برأسي .

كنت متوجســا خيفة، أن تخرج تلك الرســالة من فاه أحدهم، فتلك من بركات المكان، أو ربما كنت خائفاً أن يســألني أحدهم عن شيء غير مقتنع به، ثم لا أعرف الإجابة.

همس ما.. جعلني أتحدث إلى نفســي، وأنا ما زلت رافعًا يدي في وضــع الدعاء، وحدثني بأن أجرب مجرد تجربة، مســألة إزالة هذا التخوف والكبرياء، وأترك نفسي في معيته أو في ملكوته.

أحســسـت حينها بأن شـيئًا يرتفع بي كلما زال عني هذا التوجس، وشعرت وكأن سقف المسجد قد انفتح إلى السماء، وكانت صافية ومستنيرة دون ضوء شمس ولا حتى قمر، وسرحت معها وظللت انتقل بين ذكرياتي، إلى أن وصــلت إلى ســؤال، ســألته لي أحد الزميلات "من خلق الله "؟!، وأين كان قبل أن يكون الكون، وماذا كان يفعل ؟! وكانت الإجابة من صديق آخر.."، أن لو أن الله قد خلقه إله آخر، فإننا نعبد الذي خلقه ..".

كانت الإجابة أكثر صــعوبة، فحينما تفكر فيها، تشــعر بدوار في رأسك، وتصبح عاجزًا عن التفكير، ثم تدخل في صداع وصراع وجودي لا مثيل له.. "ماذا كان .. ومن قبل الله..؟ "

وأين كان.. ولماذا خلق .. ولماذا فعل.. ولماذا كان .. وأين ... ولماذا؟؟؟".

(صوت رنين حاد)

سألته سؤالًا آخر: "لماذا الله خلق النار والجنة ؟؟ .. هل لكي يغرينا لاجل طاعته، يخيفنا من معصيته؟؟.. فإن أي مستبد أو ديكتاتور يفعل هذا..".

فأجاب صديقي : " فلنفترض سويا عدم وجود إله.. ولا دين نزل .. ولكن ..على سبيل المثال ..قل لي.. إلى أين إذا ..سوف يذهب الظالم؟؟؟ وإلى أين ..سوف يذهب المظلوم ؟؟ ..وما الذي يجعلنا نفضل ونؤثر أن نبقي أسوياء وعلى خلق ونتعامل بإنسانية.. على أن نكون باطشين وسافلين ومتوحشين ؟؟.. فهل سيذهب الكل إلى تراب؟.. فلمَ أتينا من الأساس؟!.

طرق أحد أصدقائي على كتفي ..فعدت في لحظة بالسفينة النفاثة من الإبحار في ذكرياتي، وحينما فتحت عيناي ووجدت النور قد أغلق.. والكهرباء قد انقطعت عن المسجد.. شعرت حينها ببعض الضيق ..وأحسست أنه أظلمها في وجهي، وبعد لحظات عادت

الكهرباء بالنور.. واستنارت أركان المسجد وعاد المقام في بهجته الخضراء المرمرية.

هنالك.. قرر أصدقائي أن يتركوا المكان، ولكن شيئًا ما، لا أدري أهو بداخلي أم خارجي، ظل يجذبني نحو البقاء في المكان، ولا يرغب في رحيلي، وعندما انتبهت، وجدت رجل صامتاً يشدني لأنني نسيت الحذاء على الأرض، فأفقت من خيالي، بعدما ظننتها المعجزة تحدث.

ظل الرجل الذي يريد البركة خلفي ملح، إلى أن صرت خارج المقام، وظل أصدقائي يتحدثون عن الراحة التي يشعرون بها بعد تلك الزيارة- وظللت أنصت إلى كلامهم هذا، إلى أن وجدتنى أردد بداخلي قائلا :

"يبدو أنني لم أكن ملحدًا بالله.. ولكنني كنت ملحدًا ببركة مقام "سيدنا الحسين"..

كعادته منذ أن ترك العمل، ركب الميكروباص متوجهاً إلى الميدان، تاركاً إياه في حاله الذي وصل إليه، ملقياً نفسه في أحضان شارع الشهيد وشارع عيون الحرية والكرامة محمد محمود سابقاً، وبينما هو في الميكروباص إذا بالسائق يريد أن يختصر الطريق، ويسير من طريق غير الطريق المعهود، فما كان من أحد الركاب إلا أن استفسر بصوت عالٍ عن تصرف السائق قائلا: "أنا سأنزل بعد عدة أمتار، فعليك إن تستمر في طريقك المعتاد"، فأوقف السائق الميكروباص وقال له: "انزل هنا وتمشاها شوية..".

فرد الراكب متعجبا من كلام السائق: "طب متمشيها أنت شوية وأمشي في طريقك العادي"..

وفوجئ الراكب برد فعل الركاب المتعجلين: "ما فيهاش حاجة.. إنك تمشي الشوية دول ".

لكن الراكب صاح: "أنا بتكلم عن العدل ياهووه.. هو واخد فلوسه مني كاملة، يبقي يوصلني الى المكان اللي أنا عايزه، مش مكان

ما هو عايز يلحقنا.."ثم أردف كلامه متعجبا أكثر: " يعني أنا لو أديته فلوسه ناقصة ربع جنيه، كان هيفوتها زي ما نتوا عايزين تفوتوها كده؟!!".

وما كان منه إلا أنه أنهى الحوار غير المجدي مع الناس ثم نزل، وبعدها ضرب كل منهم كفا بكف تعجباً من أمره ومن أمر أمثاله الذين لا يتحملون بضع خطوات يمشونها في الشارع.

وتحدث إلى نفسه قائلاً: "لو إنكم مكانه ماكنش دا بقي رد فعلكوا، ولا تركتم حقكم بالشكل دا، ولا كان دا هيكون ردكم وكنتم حسيتم بالظلم أكتر منه، المرارة هى لما تحس أنك مظلوم وكل الناس ضدك، رغم إنك معاك الحق، وحقك بس، مش زيادة عليه ولا افتري منك، لكن كل واحد ما بيقدرش إلا نفسه وبس، مستعجلين..!! بكرة كل واحد فيكم يبقي مكانه".

لم تفارق عينه الراكب الشاب الذي رحل عن الميكروباص، ورغم أن الشاب كان لا يرى منه غير ظهره إلا أنه شعر بغصة في حلقه، لأنه يعلم جيداً إحساس المظلوم في تلك البلد، "لا قانون ولا ناس ولا نظام ولا شعب ينصفك، للأسف كل شيء فيهم مجهز مخالبه عشان يخربشك".

بتلك الكلمات، أنهى حديثه إلى نفسه، أثناء ترجله من الميكروباص، وسيره في الضواحي المؤدية إلي الشارع الذي تحتوي حوائطه علي صور الشهداء، وكأنه يلقي عليهم السلام، يحرك رأسه باحترام لكل صورة شهيد، ثم يبتسم لهم بحزن شديد، يفعل ذلك وكأنه يدخل عليهم جلسة من نوع خاص أو كما كان يفعل والده في مقابر أقاربه، حيث كان يشعر مع والده أن كل متوفي جالس شاهد فوق مقبرته، وكالعادة فقد استوقفته صورة الشهيدين المنسيين، اللذين لا يعرفهما أحد، ولا يذكرهما أحد، وهما الشهيد أحمد صالح والشهيد محمد المصري، اللذين كانا دائماً يمثلان صرخة في وجهه، وكانا مثالاً لكثيرين لا يعرفهم أحد، ولا يذكر أسماءهم أحد، بل لم يرسم لهما "جرافيتي واحد" مثل الباقيين.

ظلت الخطوات تسرع به نحو صورة صديق "جيكا" في الدنيا والآخرة الذي لا يختلف عنه كثيرا في الشكل.

وفجأة.. توقف.. إذ لم يرَ الصورة الوحيدة له، لم يلحظها في مكانها التي اعتاد رؤيتها فيه كل يوم، فقد استولى عليها آخرون لوضع أفكارهم عليها، ولغياب من يحرسها، فكانت ازالتها أسهل من رسمها، ولم يجد سوى استخدام الورقة والقلم في رسم قصة صاحب الصورة، فلربما يقرأها أحد يوماً ما، فيعرفه.

في عالم موازي، جلس أحمد نجيب وحيدًا، أســـفل مكان تعليق صورته التي أزيلت، ناظرا نحو السماء فى مكان استشهاده وسيلان دمه، متأملا روحه التي تحوم حول المكان، وبدأ في كتابة قصـــة صديق لم يعرفه سابقا، ولم يقابله قط.

في الشـارع، لم تنتقل الكلمات بسـهولة من رأسـه إلي الورق، ولكنه قال في نفسـه: "لن أركن إلى الإهتمام بالجماليات وانتقاء الكلمات، قدر اهتمامي بحقيقة القصة التي لا يعرفها أحد".

هناك، لم يشعر أحمد نجيب بنفسه، ولم يُفِقْ من سرحانه في حال الشـارع، الذي كان آخر شـيء رآه في الدنيا، لم يفق منه إلا على لفتة خفيفة على كتفه من الشـــهيد أحمد صـــالح، تلك اللفتة التي جعلته ينظر إلى جهة أخرى غير الذي أتي منها ، ليري المشـــهد الذي يتكرر كل يوم، حول بعض الشـــهداء الآخرين الذين يحتفي بهم من أرواح أخرى حولهم تهتف بأسمائهم، وهو يجلس وحده مع هؤلاء الذين لا يعرفهم أحد. وكتب فوقه على حائط مرمري بلون دري بخط يدوي المجد والرب مع المجهولين.

بالبركات والرحمات، تحفهم الملائكة ذهاباً وإياباً، ولا يأتي ملاك نحوه هو، ومثله آخرين في أنحاء الســـماء، وبين الحين والآخر،

يأتي الملاك، كما يأتي حارس السجن بالزيارة، ليبلغه أن فلانا قرأ لك، أو ترحم عليك و ربما يبلغه أن كلمات تكتب عنه تحت صورته..

هنا، بعدما استوحى بعض الكلمات، كتب يقول :"بعد اليوم الذي علم فيه خبر استشهاد شهيد آخر بعد جيكا، ومر اليوم مع بعض الرحمات المجاملة، وانشغل الناس في جنازة الشهيد الأول، وكاد الميدان ينسي اسم شهيد اليوم بعد ثلاث أيام، وقف بعض الفتية يحملون "بانر" يحوي صورته قبل الوفاة وبعدها، كالعادة مع كل من استشهد بأُتُون الثورة، ليذكروا الناس بصديقهم وصاحبهم في المدرسة أو الجامعة أو في الدنيا، أنا لا أذكر عددهم بالتحديد، سيقولون ثلاثة رابعهم "البانر" أو سيقولون خمسة أو ستة، ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، وظلوا على حالهم هذا، ما يقرب من أسبوع ولم يجدوا أحدًا يهتم بهم، ولم يجدوا ما يفعلونه، إلا أنهم تركوا صورته على متحف الثورة، الذي أُحرِق في أول مرة لفض الميدان، والذي أحرقت بسببه صور كثيرة كانت منهم صورته، وهذه الصور لا يعلم أصحابها إلا الله، أو لا يعلمهم إلا قليل".

هناك، وبعد حيرة شديدة، لم يجد سبيلاً آخر إلى الكتابة سوى أن يكتب عن قصة زائر دائم للشارع، جلس يكتب قصة زائر دائم

للشـــارع جلس يكتب عن شـــهيد اســـمه "أحمد نجيب"، الذي كان يكتب عن شـخص زار الشـارع يوماً، وبعد إزالة صـورة هذا الزائر، تذكره زائر آخر فجلس أســـفل المكان الذي كانت صـــورته معلقة فيه.. ليكتب قصته، التي لا يعرفها إلا قليل..

"أحـ...تج،.. أنا كده اتظلمت ولسه بتظلم.. يعني إيه أبقى المجني عليه.. وفي نفس الوقت متهم".

"طيلة الطريق".. كاد ســعفان أن ينطق بتلك الكلمات المحبوســة بداخله، بعدما خرج من ساحة المحكمة وبعد سماع حكم المحكمة في قضيته الذي انتظر فيها أن يثأر له القانون من الجاني، ولكنه كان طوال الفترة التي انتظر فيها هذا اليوم "يوم ســماع الحكم"، كان لسان حاله يردد "ما جابوش حق اللي مات.. هجيبوا حق إلي عاش؟! ".

"أعمل إيه... أعمل إيه"، يسمع بالخارج أثناء حديثه مع نفسه بتلك الأسئلة الحائرة، موسيقي برنامج "بين الناس" فيصرخ: " لأ لأ أنا مش حالة في برنامج.. أنا ضــحية لقانون جامد ســاذج "، ثم يســتطرد: "أومال أعمل إيه بس.. أقوم محامي تاني.. ولا أرفع قضــية تانية على القاضــي ووكيل النيابة.. وإذا كان القانون ما جبش حقي من مواطن.. هاخده من السلطة.. أعمل إيه بس ياربي أعمل إيه" ثم يقول ببكائية شــديدة" هي دي العدالة والكرامة اللي

نادينا بيها بعلو صـــوتنا في الشـــوارع.. معقولة ماحدش ســـمعنا منهم.. معقولة يا دولة ..يابلد ياسلطة .. يا ولاااد الـــ... ماتكنوش سمعتونا..

ثم يسمع في الخلفية هتافًا من ذاكرته، لإحدي مسيرات المظاهرات، ويبدو على ملامحه بريق فكرة في خطرت بذهنه، ثم يرفع هاتفه ليحدث أحدهم قائلا :

"ألو.. أيوة.. قول للناس، إني هعمل مظاهرة احتجاجية، قدام وزارة العدل أو دار القضـــاء العالي..."، ثم يجيبب عن تســـاؤل من المتحدث إليه قائلا: "مش احنا دولة قانون، خلاص أروح أسمعهم إني مظلوم خليهم يطبقوا القانون".

وأمام وزارة العدل.:

سعفان : "محدش جه لحد دلوقتي ليه؟! "

أمن الوزارة : " يـاأســـتـاذ يـاأســـتـاذ.. ممنوع تتظـاهر هنـا". سـعفان : "يعني إيه ممنوع أتظاهر هنا.. أنت مش شـايفني كاتب إيه.. هي دي مش وزارة العدل.. هو دا مش مكان العدل ياناس".

أمن الوزارة : "أيوة ياحضـــرة ..بس فيه قانون، واحنا دولة قانون".
سـعفان : "طب أنا جاي هنا عشـان القانون ودولة القانون.. جاي بسألكم هما هينزلوا من السما إمتي...!!".

أمن الوزارة :"أنـا قصـــــدي إن في قـانون طوارئ دلوقتي وقـانون التظـاهر.. يعني حضـــرتك لازم تلتزم بيهم ومـا تقفش هنـا، دي منشأة حكومية.. ياحضرت ".

أثناء حديث حارس الأمن للوزارة، فوجئ "سـعفان" باسـتدارة بعض عربـات الأمن المركزي والمدرعـات للإحـاطـة بـالمنطقـة، وفي تلك الأثنـاء، قفز من المـدرعـة رجـل عريض الهيئـة، يرتـدي لبـاس الشـرطة، وواقيًا من الرصـاص، يتحدث في جهاز "لا سلكي"، إلى أن وصـــل إلى"ســعفان" موجهًا له الحديث:" إيه اللي موقفك هنا، وإيه إلي ماســـكه في إيدك دا.. اتحرك من هنا، قبل ما نتعامل معاك".

ســعفان: "يا ســيادة الضـــابط، أنا مجرد مظلوم وجاي أوصـــل صـوتي..عشـان حيطان المحاكم مُحكمة، ومحدش بيسـمعنا، واحنا بنشتكي ولا بيشوفنا لما بنعمل مظلمة".

الضابط: "انت بلغت عن تظاهرك..؟؟"

ســـعفان: (يحاول ســـعفان الرد، فيكمل الضـــابط كلامه، مقاطعا سعفان)

الضابط: " خدت تصريح من أي جهة؟".

ســـعفان: (يحاول ســـعفان الرد، فيكمل الضـــابط كلامه، مقاطعا سعفان)

الضابط: "جيت عندنا اديتنا أسمك وعنوانك وسبب تظاهرك؟ ".

ســـعفان: (يحاول ســـعفان الرد، فيكمل الضـــابط كلامه، مقاطعا سعفان)

الضابط : " قولتنا هتبقي الساعة كام وليه ؟" .

سعفان : (يحاول سعفان الرد يائسا، فيكمل أيضا الضابط كلامه، مقاطعا سعفان)

الضـــابط : " بلغتنا مين معاك وأنت تابع لمين ومين بيمولك..أو محرضك..؟؟ ثم ينهره الضابط قائلا:

"ها رد عليا... حظك إن القانون بيقول تظاهر عدد من الأفراد وانت جاي لوحدك.. فا مش هينفع إننا نطبق القانون عليك..ساكت ليه..؟؟ يبقي أتفضل من هنا.. ولا نخدك عندنا..".

فطوى ســـعفان لافتته، بعدما أحس أن المرأة التي تحمل الميزان على جدران وزارة العدل، كانت تنشـــر غســـيلها، ولم تنتبه له ولم تعره اهتمامًا، بل مال الميزان منها، حتى ضـــربته إحدى كفتيها علي رأســه، وأحس بأن صــقرًا طائرًا ومحلقًا فوقة ليخطفه كفريســة سهلة بين مخلبيه.

ولكنه رغم ذلك لم ييأس، وذهب إلى دار القضـــاء، ووقف أمامها شــامخًا، رافعًا رأســه ولافتته، وإذا بالناس ينظرون إليه ضــاحكين، وبعضــهم "يحســبن عليه"، وبعضــهم يقول له عبر نوافذ الســيارات والميكروباصات المارة بالشارع : " سيبوا البلد تمشي بقى".

وكاد ســعفان أن يرد عليهم، ولكنه بلعها في حلقه قائلا في نفســه: "معلشي.. ماهي لما بتمشي بتمشي علي رقبينا ".

وأثناء حديثه إلى نفسه، لم يرحمه أحدهم من نظراته القاتلة ووسط إجاباته لعيون الناس في الشـــارع والصـــاعدين والمغادرين دار القضــاء العالى، أصــحاب القضــايا والمظالم مثله، جاء رجل وقف

أمامه، وظن "سـعفان" أنه سـيضـربه أو يرجمه بالحجارة، ولكنه فوجئ أن الرجل يبكي، قائلا : قانون إيه يا أسـتاذ.. أنا آبني مات في العمليات.. من إهمالهم.. ومن جبروتهم قالولي أرفع قضـية ومنشوف آخرتها.. وإحنا معاك لحد النهايات.. ورفعت القضية .. ومفيش دليل على إدانتهم أصلها مستشفى حكومية .. أبني مات ومحتاجين دليل يجيبوا أبني يسـألوه بقى على الدليل، وهو في بعد موته دليل ..ياخلق ياهو أبني قتلوه وعايزين دليل ..

و"ذهب الرجل".

وإذا بامرأة كانت تحدث نفسـها، فلفت انتباهها ما كتبه "سـعفان"، فصرخت في وجهه:

"الحكم معايا والأرض أرضـي.. لكن هما معاهم القوة والسـلطة.. قانون !! "وتشيح بوجهها وكأنها عادت تكلم نفسها" قانون إيه ؟!! قانون ياتسـكت عشـان تعيش..! يتعيش مظلوم وأنت مرضـي.. الطين طيني والأرض أرضي.

طمع في بنتي وعرفت احميها منه وطمع في أرضي وجابهم عشان يخدوها مني.. ماتت البت وخدوا الأرض وهتكوا العرض في مكاتبهم.. ولسه محدش عايز يسمعني مهو الودان كلها ودانهم..

والحق بيجى للي منهم.. والقانون بيحمي حبايبهم.. وميطبقش إلا على الغلابــة إللي طمعــانين حتى في قوت عيــالهم.. وتقولي قانون.. قانون ياتســـكت عشـــان تعيش..! يتعيش مظلوم وأنت مرضي.. الطين طيني والأرض أرضي.

خجلًا ومللًا.. كاد "سعفان" أن ينزل لافتته، ولكن إصراره لم ينفد، فرفع لافتته أعلى وأعلى، وأثناء رســم ملامح التحدي على وجهه، إذا بشاب آخر، يرفع معه اللافتة ثم ضحك ساخرًا، ثم جلس علي الأرض، ويقول: بنتي مش عـارف أشـــوفهـا.. وتقولي قـانون.. أجيبلك لســـته بعدد الأباء ولا الأمهات إللي مش عارفين يشـــوفوا ولادهم بســبب أن مراتتهم ولا جوازهم ليهم نفوذ وســلطه وبســبب أنـ..

أقولك على حدوتة ملتوتة.. مرة كان في واحد راح يعمل محضـــر عشـــان بنته ضـــيعه.. وكان في بنت تانية مقتولة ومش عارفين يجبوا إلي قتلها.. قاموا مسكوه وعذبوه بتهمة قتل بنته ودي مكنتش بنته.. ولحد ما مراته لقت البنت.. طلع بعد تلات ســنين ســجن.. وإلي اتهموا في الجريمه كانوا رتب.. وبعد مالقضـــية هديت رجعوا تاني أعمالهم وأتوزعوا وبعدها أترقوا عشـــان يبقوا رتب ويبقوا هما إللي بينفزوا القانون إللي بيحمي المواطنين، ونفســـي أعرف أنهي

مواطنين دول.. إذا كنـا أحنـا اهو ومش محمين ولا أحنـا مش موجدين في حسابتهم وموجدين بس في دفاترهم..

نزل نزل.. إيدك هتوجعك ومحدش هيســـمعك.. أنت في دولة لو حبيت تاخد حقك بالقانون.. بالقانون الدولة هتمنعك..

بعدها.. ابتعد الشـــاب، واختفى وفوجئ "ســعفان" بفتاة تنظر إليه، وعيناها مملوءتان بالدموع، ولكنها ظلت جامدة، كأنك ترى من ملامحها نيرانًا عاتية محبوســـة خلف جدران تلك الجمجمة رقيقة الملامح.. بأن مســجون يصــرخ وذكريات و ذكريات مؤلمة أذابت خلايا ولحم هذا العقل حتي أفقدته قدرات كثيرة منها النطق..

سـعفان في نفسـه : الله إيه الوردة المطفيه دي.. بنت كانت جميلة اوي.. بس ياخسارة شكلها طلع عينها زي..

البنت الصــامته في نفســها : عارف لولا أن مش قادرة اتحرك من إللي فيا ..كنت جيت.. تفيت عليك.. لســـه ليك نفس تقف وتطالب.. انسى بقى.. بوصلي كده وانت تعرف.. يعني أيه ظلم ويعني ايه تبقى كل حته في جسمك موجوعة من كل أيد شوية.. والمجتمع برضه يبصلك على أنك إنت الجاني وياريت حتى بيقولوا إنك الجاني على نفســك.. بيعملوك على أنك ســبب كل مشــاكل

المجتمع.. ياريتني قادرة أعمل زيك.. بس خايفة لو جيت جنبك يرجمونا ولا يقيموا علينا الحد.. مش عشان أنا بنت وانت راجل لا لا ســـمح الله وبيطبقوا حد الله.. دا ربما عشـــان النهاردة الحد.. فيطبقوا الحد.. أوعشـــان إنت مش هتعرف تجيب حقي.. كنت عرفت تجيب حقك.. وكده ولا كده هيتقبض علينا بتهمة التجمهر.. أنا وانت والشيطان..

وظل الأمرعلى هذه المنوال، إلى أن كســـر بؤس تلك الحالة، مجموعة من الشـــباب يرتدون تي_شـــيرتات، رســـم عليها وجوه مألوفة، وكلمات صارخة وهاتفة.

جاءوا بسرعة مذهلة، هاجمين على "سعفان" وانهالوا عليه بالكلمات واللكمات "انت فلول ولا إيه...انت مين اللي بعتك.." إلى أن اســـتوقفهم "ســـعفان"، وروى لهم حكايته، وإذا بلافتته تتحول إلى لافتات ترفع نفس الكلمات.."إحنا متأســـفين.. بس إخواتنا ماتوا ومش عارفين نعمل إيه بقى.. قالولنا دي دولة قانون.. قلنا ماشـــي.. ولقينا اللي بيطالب بحقه فيها بيتهموه، ولو اشـــتكى أو اعترض يبقى مجنون.. زي حضرتك.. إزيك بقى !!".

أثناء وقفتهم هذه، تجمعت حولهم قوات أمنية مختلفة، واصـــطف أمامهم أعداد كبيرة من عســـاكر الأمن المركزي وآخرين، وكانت أعـداد القيـادات التي ترتـدي بزات عليهـا رتـب عليـا في ازديـاد مســـتمر، وإذا بأحدهم يرفع ميكرفونًا، محدثًا إياهم، ولكنه أراد أن يظهر وكأنه يحدث الناس المارين في الشارع قائلا :

"انتوا اخترقتوا القانون، وما التزمتوش بالسياسة الجديدة للبلد، واحنا هنا عشـــان نطبق عليكم القانون.. البلد فيها قانون طوارئ، وفيها قانون تظاهر، وإحنا دولة قانون".

نظر "سـعفان" إلى الشـباب والبنات من حوله ضـاحكًا: "أيوه هي دولـة قـانون.. قـانون واحـد فقط، قـانون الطوارئ أو قـانون منع التظـاهر..إنـت وحظـك.. قـانون لمـا هي تغلط وتخـالف القـانون، وتنزل تعترض تطبق عليك القانون.. دولـة قـانون.. قـانونهـا هي بس".

خيمة خشب.. (*)

لم يعد إلى بيته، بل لم يذق طعم النوم على سـريره، منذ قرابة أسـابيع من الاعتصـام في الشـارع، لم تعرف عينه طعم الأحلام المنزلية منذ فترة طويلة، ولكن النوم كعادته، لا يأتي سـريعاً، فمن تعود على النوم وعيناه مفتوحتان أو يغلق إحداها والأخرى منتبهة قلقا، أو يغلق عيناه وأذنه منتبهة تترقب، وذهنه شـارد مشـتعل بالقلق والأفكار، النوم لا يعرف لجفون عينيه عنوانًا.

أغمض عينيه، بعدما وضع رأسه على "وسادة" مريحة، وتخيل أن لو كان محظوظًا في تلك الليلة لكانت بدلاً منها بطانية، أو نعليه لو أضطر الأمر إلى ذلك أو زجاجه بلاستيكية علي أسوء حال، ولكنه يذكر أنه كان سعيداً بهذا الحال، وتزداد سعادته ومعنوياته، كلما ازدادت مشقته ومعاناته.

(*) هذه القصة حقيقية.. رويت لأم شهيد... فأضحكتها وأبكتها، أم الشهيد هي والدة الشهيد أحمد محمد صالح شهيد محمد محمود الأولى.

وجال بخاطره نظرات رفاقه في الميدان، وهو يودعهم، ويعلن لهم وسط ضحكاتهم قائلا: "أنه من اليوم، سوف يعتصم في البيت، ووعدهم أنه سوف يعاود ليطمئن عليهم، من حين إلى أخر".

بوصوله إلى منزله، خطفه شبح النوم سريعاً ثم استيقظ بنفس السرعة، وأحس أن هذا الوقت الطويل في النوم، كان طويلاً فقط على انعكاس ضوء الشمس وعقارب الساعة، ولكنه أحس وكأنه اغمض عينيه ثم فتحهما ثانية، وأفاق راميا جسده في الهواء مسرعاً، ويكأنه كان يغرق في السرير، نظر حوله فاستغرب المكان بشده، فهو ليس بخيمة، وسرعان ما تذكر أن هذه هي ملامح حجرته في بيته، لم يستطع كثيراً مقاومة الرغبة في النزول من المنزل، والتسكع في الشارع، والنية المبيتة هي الذهاب إلى الميدان.

استغرب كثيراً أشكال الشوارع، ودارت بينه وبين نفسه انتقادات ساخرة وحادة، أنتجتها غربة الناس عنه، وغربته عنهم، لم يعرف طعم الوطن، إلا عندما وقف فجاءة، فإذا به أمام مشهد مألوف، يعرفه جيداً.." مدخل الميدان".

شعر بداخله وكأنه سنفورا أو هوبيت، يدخل مدينة السنافر والأقزام "شابير"، تلك المدينة الساحرة والخضراء الباهرة بنيوزيلاندا، صال يبحث عن كوخه وسط الأكواخ المتشابهة، التي تغوص في خضرة الغابات، وبين تمايل الورود وفروع الأشجار المزهرة.

لكن الصورة في الواقع، هو يرقص طرباً وتنطيطاً كـ"سنفور"، نعم.. بداخله، ولكن الأكواخ هي خيام عفا عليها زمن الاعتصام، والخضرة هي لون الفرحة التي أضفاها فرحة الرجوع إلى الوطن، والورود والفروع المتدلية هي "بنرات" ممزقة، تحمل شعارات ورسائل ومطالب، وبعض الأحبال المتدلية منها. وقف أمام المكان الذي اعتصم به في الأيام الأخيرة، ومر بين عينيه، شريط ذكريات الأيام التي مكثها فيه، بكل خطوة وحركة وحركة وسكنة.

تجمع حوله رفاقه، مهنئين ومباركين له، بالاستحمام وتصفيف الشعر، والحلاقة واللباس النظيف، مرت ساعات اليوم سريعاً، وسط الكلام والألفة، إلى أن دخل الليل سريعاً، ووجد نفسه وحيداً في مكان الاعتصام، الذي تركه وتركه كثيرين، إلى أن أصبح خالياً، وكأن ريحًا عاتيةً أطاحت بمكوناته، إلا من هذه الخيمة

الخشـبية، التي كانوا يحتمون بها، في الليالي الممطرة، ذات الريح والصقيع.

دخلها وظل يتحسسها، ولأول مرة يراها متسخة وغير مرتبة، ولأول مرة يحتار.. أين يجلس!!، ولأول مرة يرى عيوبها وينتقدها، ولأول مرة يقارن بين صـــورتها أول ما شـــيدت ورفعت وحالها الآن، وتذكر.. تلك الفرحة، حينما أقيمت أول مرة، وشـــيدت واقفة أمام أعينهم.

أحضـر صـديقه بعض الطعام واسـتعطفه أن يعتصـم معه الليلة حتى لا يبيت وحده.. وأتى وقت النوم، ومعه دخل الهواء من كل فتحة في حوائط الخيمة الخشـــبية، ومعه تذكر كيف كانت الأيام الخوالي، وسأل نفسه: هل نسيت ؟!!! .. هل مجرد يوم واحد في البيت يجعلك تتذمر .. ؟؟!!.. قالها مغلقا أي باب للحنق والضيق يدخل مع برودة الهواء.

كان يرقص في أحلامه مع عروسة، غير واضحة الملامح، ولكنها تبدو جميلة، وفي وسط الرقصة، سمع صوتًا شديدًا لشئ يكسر، وشـــعر بهواء اندفع بقوة، طير فســـتان العروس ونطره من النوم، فاكتشـف أن شـدة الهواء بالخارج كسـرت الحائط الخشـبي الذي

بجواره، ونفض من عليه الغطاء، وقام يفكر. ما العمل؟!، وكيف يمر من هذا المأزق، وتوالت الأفكار برأسه..

وهو يبحث عن حجر ومسمار ليصلح الحائط المنكسر، وجد بعض المسامير الملتوية والتي أصابها الصدأ فهى منذ الإنشاء، فحاول ضبطها ثانية لتقوية للحائط، وبدا أن الأمر قد نجح وذهب مرة أخرى للنوم بعدما قلق شريكه في الخيمة، وعادا للنوم.

وقبل أن تغفل عينه، انخلع الجزء المكسور مرة أخري، وقام على الفور، وخرج فوجد الجزء قد طار مع الهواء، تاركاً المسامير في أماكنها، ووقف ينظر إليها وكأنها تتحرك وستتكلم، بل و تحمل تعبيرًا "ما باليد حيلة، فعلنا ما بوسعنا، ولكن الهواء أقوى منا".

هرول وراء الجزء الطائر، ثم أرجعه إلى عشه ثانية، وحاول أن يصنع سندًا له، مع إعادة المسامير إلى اماكنها، وتعرقلت نعومة سيره علي الأرض بشيء بدا وكأنه مسمار، واتضح فيما بعد أنه مسمار قوي بالفعل، وقد جاء في وقته المناسب، وظل يتأكد أن كل شيء في مكانه، وقد أتم عمله بنجاح، وهو ينظر إليه بعين فرحة وعين مترقبة، وسط تهكمات شريكه بالغرفة، و الذي رأى أن

كل ما يفعله لن يجدي، بل أضـــاف أنه لا يســـتطيع أن ينام من صوت "الدق".

وقال في قرارة نفســه: "طبعاً إنت نايم، جنب الحيطة الســليمة، ولا همك، وأنا حايش عنك هوا الحيطة المكسورة "، ثم ضـحك قائلاً : "اعتبر إن فيه اشتباكات وضرب ياسيدي"..

بعدها ..دخل الخيمـة، ثم جلس يفكر في الـذهـاب إلى المنزل، وأحس أن الوقت متاخرًا، وفي هذا الوقت يزيد الخطر، كما تزيد سـرعة وقوة الريح بالخارج، واسـتسـلم للنوم محاولاً دفن رأســه فى الفراش وتكفين جســـده بالبطاطين، وحينما جذبه حبل النوم من طرف، ليأخذه إلى عالم الشـــفق جذبه من الطرف الأخر صـــوت مدوٍ لشيء ارتفع و ارتطم، ودون أن يفكر، عرف مصدر الصوت، بل أحســه بشـدة، بسـبب برودته على وجنتيه، واكتشـف أن فكرة المسامير لم ولن تصلح، فلو كان في المسمار الحالي خير ما فسد المسمار السابق".

أحضــر الجزء الطائر وأدخله الخيمة، ووضــعه من الداخل، ولكن الهواء أوقعه عليه وهو نـائم، فقرر قراراً هو الأصـــعب في تلك الليلة، وهو أن يســند بإحدى قدميه الجزء المكســور، ويدفئ القدم

الأخرى تحت الغطاء، ثم يقوم بالاستبدال عندما تشعر الأخرى بالغيرة.. وهكذا..

ولايزال الهواء يدفع الحائط المكسور، ومن شدة برودة الهواء فر النوم هارباً، وكلما تقلب سمع نداءاً غريباً في أذنه، لم يعرف لماذا جاء في هذا التوقيت، وما السبب لتذكره..؟، كلما استبدل قدمًا، أحست الأخرى بالبرودة والقرص الشديد، ثم سمع صوتا يقول :

" إلا الثورة ...على جثتنا".

ويتقلب ويريد أن يمسك بالنوم من السماء، فيسمع " إلا الثورة ...علي جثتنا "، وكلما سمع شخير رفيقه في الخيمة، مع صفير الهواء بالخارج رن في أذنه نفس الصوت: "إلا الثورة ..على جثتنا " .." إلا الثورة على جثتنا "، ويتكرر الأمر.. يتقلب ويسمع.. ويتقلب ويسمع ..ويغطي رأسه فيسمع أكثر، ثم يحدث نفسه: "خلاص عرفنا"، فيسمع "إلا الثورة.. على جثتنا "، وكأن مسيرة ثارت داخل أذنيه، وتحول النداء من مجرد صوت إلى هتاف، وتحول الهتاف إلي هتافات ومظاهرة.

" إلا الثورة ...على جثتنا "

" إلا الثورة ...على جثتنا "

ويصـرخ داخل نفسـه : "طيب أنام وأصـحى بكرة أهتف، ونكمل الثورة بس أنام شوية".

"إلا الثورة ...على جثتنا"

"إلا الثورة ... علي جثتنا"

فاندفع خارجاً من الخيمة، وسـط بزوغ نور الصـباح، مردداً "إلا الثورة .. على جثتنا".

وأثناء اسـتعراض عينه للميدان، الذي كان يحوي خيمًا أكثر عدداً وقتما ذهب للنوم، وبدا لـه أنـه غفى غفوة أهل الكهف، فالخيام كانت بمثابة بيوت تركت أماكنها، ورحلت مخلفة ورائها صـحراء تشف.

" مسرور.. شاه ريار"

في واحد من تلك الأزمان الغابرة، كان الملوك يفعلون ما يحلو لهم، ولم يشهد زمن من الأزمان ملكًا كـ "شاه ريار" (*)، الذي ظن في لحظة ما، أن كل شعبه وبلده ملك له، ولا يستطيع أحد أن يتحداه أو يعترض له على أي فعل، مهما كان جرمه، إلى أن وصل في طغيانه، إلى درجة أنه كان ينفث في شعبه عن عقده النفسية، والتي سببتها أمه والزوجة الأولى، والتي تركته بعدما اكتشفت حقيقة شخصيته، وظل عقله الذي مرض بعد صدمة الفراق، وما جرى قبله وكيف جرى، يخيل له أن الأميرة خائنة، وأن كل النساء عدا أمه عاهرات خائنات، إن لم تكن خانته مع أبيه، ويجب أن يذبحن كلهن، فلا أمان لهن بعد ليلة واحدة من المعايشة، ولا تستحق إحداهن العيش معه أكثر من ذلك (أي ليلة واحدة).

(*) كلمة ((شهريار)): أصلها شهردار أي مالك المدينة، ولقد تم تبديل شاه ريار للتعبير عن الملكية والسلطوية من خيال المؤلف ويقال أن كتابتها الصحيحة هكذا.
وكلمة ((شهرزاد)) : تعني مولود المدينة وإن كان أصلها شه زاد وتعني مولود(ة) الملك.

وكان يشاركه في ذلك جنده وحارسه المدلل "مسرور"، الذي سمي هكذا لأنه كان يفعل كل شئ وهو مسرور، حتى وهو يذبح ويقتل، فالضحكة لا تفارق شفاهه، سمراء المخرج حمراء المدخل، ودائماً ما كانت أسنانه البيضاء، تنير ظلام وجهه.

الليلة تجر الليلة.. ودماء الحسناوات تحني سروالاته .

الضحكة التي لا تفارقه بالنهار، ومن بداية صياح الديك والتي يتفاخر بها أمام الناس.

كانت تفارقه في الليل، وفي الظلام وفي الوحدة.

عندما يغلق عليه باب غرفته، التي تكاد تنير في الظلام من كثرة دماء الحسناوات والفتيات الصغيرات على سروالاته المترامية في كل اتجاه بالغرفة.

بل هو نفسه لا يعرف... لماذا يبكي ؟؟!

هل تشتاق نفسه للبكاء بالليل بسبب كثرة الضحك بالنهار.

هل أحب إحداهن ؟؟! واشتاق إليها ! لا يتذكر ملامحها ! من كثرة الدماء التي رآها؟، أم من الدماء التي كانت علي وجهها !

هل أثر فيه صراخهن وتوسلاتهن ! .

ذات صباح مشمس.. خرج " شاه ريار " على شعبه، وبدا من كثرة تصفيقهم له، وهتافهم باسمه، مدى خشوع شعبه له.

فمن المشـهور عن تلك المملكة، أن صـوت فرحة شـعبها بخروج ملكها عليهم، كان يغزو الصحراء، بل ويصل إلى كل من حولها، من بلاد وممالك.

إلا امرأة واحدة ..كانت تنشـر خطواتها بين الناس، لتشـاهد مدى مصداقية الناس في مشاعرها.

لم يلاحظها أحد، إلا واحد، ظل مسـرورًا، بما يشـاهده من حب الشعب لملكه، حتى رآها،

فلما رآها خفق لها ولأناقتها قلبه، وأسـتوقفه هذا عن دوران رقبته بشكل تلقائي لمشاهدة جموع الناس.

وكان أمر هذه المرأة عجيب بالنسـبة له، إلا أنه لم يكف عن الابتسام، ربما لئلا يلاحظ مليكه شيئًا.

ولكن لماذا.. خاف أن يلاحظها الملك؟.. أم أنه خاف على نفسه من أن يكون مصيره يوماً ما تحت سيفه.

بالرغم من أنه تمنى كثيراً أن تقترب يوماً ما وتدخل القصـــر، إلا أنه وبنفس الدرجة، خاف عليها من أن يكون آخر يومٍ في عمرها تحت سيفه.

لم تكف "شهر زاد" عن البحث والتدقيق في مكونات هذا الشعب، الذي يحب الملك الذي يحكمه مهما كان صـــنفه، إلى درجة أنهم يعطونه أكثر فتياتهم جمالاً، ولا تقاد شمعة حزناً عليهم، ولا يسمع في البيوت عويل لفراقهن، إلا قليلا بل ويكون مكتومًا، بين الحلق والقلق والصدور.

والأغرب من ذلك..أن تجد منافسة في اليوم التالي، بين أسرتين أو ثلاثة في تقديم الفتيات، اللواتي يخرجن من بيوتهن في قمة زينتهن، على الرغم من علمهم جميعهن، أن اكثرَ ما تحلم به، هو العمل جارية في بلاط حرملك القصر الذي لا أميرة فيه.

الفتيات تدخلن القصـــر، ولا يراهن أهاليهن مرة آخرى، ولا زالوا لم ينتبهوا .

وذات صباح .. قررت " شهر زاد " أن تدفع بأسرتها إلى المنافسة.

أســـرتها.. التي كانت تخفي أمرها تمام ..فلم تعلن قط، بأن لديهم فتاة.

أسرتها.. التي وجدتها وهي صغيرة، بعدما أحرق " شاه ريار " وهو شـــابٌ، بيتَ والدها الوزير.. كان أبوها هو وزيرَ أبيه، الذي كان مخلصاً للقصر.. وكارهاً وناصحاً مما يراه من أفعال " شاه ريار".

لم تستطع "شهرزاد" أن تختبئ، وتخفي أمرها أكثر من ذلك.

بل لم تستطع أن تسكت، على ما يجري، من قبل هذا الملك، الذي استغل شعبه في إرضاء غروره وجبروته.

ولما دخلت " شهر زاد " في المنافسة، علمت السر في كون الملك محبوبًا من الناس، لأنه صـــور لهم أن وجوده هو الأمان من المجهول الذي يحوم حول المملكة.

" البرابرة "..هكذا يطلق جند الملك.. على المجهول.

والشـعب يخاف أن يخسـر مملكته، التي هي ملك الملك، و الذي يخيل لهم ويصـور لهم، أنه من رحمته بهم، يتركهم يعيشـون فيها، بل ومن كرمه عليهم، يأكلون من خيرها، ويشربون من أنهارها.

لم تفز " شهر زاد" في المنافسة، لأن أهلها لا يملكون المال، لتدفع أكثر من غيرها، ليقع عليها الاختيار.

ولكنها بالحيلة، اسـتغلت ذكاءها، ولفتت انتباه الجند، إلى أن الفتاة الأخرى ثوبها ليس مفرودًا مثل ثوبها.

ولم تفلح حيلتها، فصرخت في الناس، أنها تتحدى الملك في سبيل أنه يترك الفتيات، ويتزوجها هي، إلى نهاية العمر بأكمله. وتجمع الناس حانقين حولها ليسمعوا ما تقول.

وأسـرع الجند إلى "مسـرور " يخبرونه بما جرى، فجاء على الفور، ليشاهد ما الذي يجري.

وأول ما رآها "مســـرور" عرفها على الفور، وتخفيفاً لوقع كلامها على الناس..ناداها.

فعرفت أن حيلتها قد نجحت، وأنها ســـتدخل القصـــر أمام أعين الناس، الذين ربما لمســت كلماتها شــغف قلوبهم، وحركت داخلهم شيئاً.

وبين الفرحة والخوف، والانبهار والحيرة والتســاؤل.. ســار بها إلى الملك.

انبهر الملك بالفتاة الجديدة، والتي كانت مختلفة عن سابقتها، فهى امرأة، وليست فتاة.

ولكن.. بعد كلام "مسـرور" تغير وجه الملك.. إلى السـعادة أكثر، ولكن سكن الحذر داخله..

فأخيراً.. شيٌء جديدٌ يحدث، وأخيرًا.. تحداه أحد، لكن لم يبدُ عليه إلا ملامح الدقة في التفكير.

ظلت "شهر زاد" أيامًا وأيامًا، محبوسة في حجرتها، التي أعدها لها الملك، وسخر لها حرس مسرور.

كل ليلة.. كانت تسمع صراخ الفتيات، وهن يتصدعن على جدران القصر، ودهاليز سجونه.

فكرة واحدة ســـيطرت على تفكيرها.. لماذا يحب الناس الملك؟!.. رغم أنهم يعرفون تماما، أنهم لن يروا فتياتهم مرة آخرى.. فهو لا يذبح الفتيات أمام الناس في مقصلة عامة.

وذات مرة.. استغلت دخول " مسرور" عليها بالطعام، مع الخادمة "ملثمة الوجه".

وما كان من "مسرور" إلا أن أشار للخادمة بالرحيل" التي لم تبدُ من مشيتها أنها أنثى".. وظنت " شهر زاد " أنه سيجيبها.. ولكنه اكتفى بالنظر إليها.

تارة .. تحس بأنها نظرة مشتاق، وأخرى.. تشعر بأنها نظرة شكٍ واستبيان.

ظل الليلة وراء الليلة.. يؤجل مصيرها، وهى تسمع " شاه ريار" قصصها.

و"مسرور" يتعجب من أمرها، فهي الوحيدة التي بقيت، ولم يصدر بحقها أي فرمان.

وليلة بعد ليلة .. حاول "مسرور" أن يسترق السمع، ويجرب حديثها.

دخلت الحكايات قلبه، كما سبقتها صاحبة الحكايات.. ولكن !!

ما يفكر فيه، ليس من حقه، ولم يؤذن له به.

سوف يخسر القصر، الذي يعيش فيه، والمكانة بين الناس، وربما حياته كلها.

انشغل " شاه ريار" بأمور "شهر زاد" ونسي المملكة كلها.

والمجهول تحقق..

فقوم من المملكة، لعبوا دور البرابرة، واستغلوا انشغال القصر بأمره ومن فيه، وعاثوا في البلدة فسادا.

وانضم إليهم من انضم، وخاف منهم من خاف، حتى أنهم هددوا القصر ذاته.

وأول فرمان صرخ به " شاه ريار"، أن اذبحوا "شهر زاد" فهي زعيمة المؤامرة.

وخرج على جواده، وتركها بين يد "مســـرور"، الذي لم يتمنى يومًا غير ذلك.

وهي الآن.. تنظر في عينيه.. وتتذكر كلما دخل عليها الحجرة، فتسأله سؤالاً لا يستطيع الإجابة عنه.

ألم تسأل نفسك يوما.. من تذبح ؟

ألم تعرف سبباً للذبح ؟

ولمَ أنت.. وليس غيرك ؟

ولمَ هن .. وليس أنت ؟

ما ذنب الذبيحة إذا قتلت..سوى أنها كانت جميلة في عين ملكك؟

وما ذنب الذبيحة في وفائها..ووفاء العهد في قلبك ؟

وما ذنب الذبيحة في دمها..وضعف مليكك..آسال قلبه ؟

وما ذنبك أن تحمل ذنب الدماء كلها على نصل سيفك ؟

ولم ولن تكسب يوماً فضلها.. بل لن يؤخذ ثأرها إلا من جسدك

أيها المسرور..

ثُرْ.. "ثور"..

فلو متنا جميعاً ..

فلن يبقي على المقصلة

.. إلا رأسك ..

وبكل الحب الذي أكنه في قلبه نحوها، والذي تصـــوره للحظة أنه كذبة، هوى بالسيف على رقبتها .

عاد ملكه ولم يلاحظه ولم يســأله.. وعمت الفوضـــى، وســقطت الكذبـة في أعين النـاس، وســـاقهم الخوف إلى الاحتمـاء بجوار القصر.

ومشــى والد "شــهر زاد" بين الناس، يفشــي ســر القصــر، ويســأل الناس: " ما بال عقولهم وما حال بناتهم؟ ".

فكم مرت من أعوام، ومنهم لم يرَ ابنته ولو لمرة واحدة.

وخرج الناس حاملين المشاعل، مهددين بحرق القصر، إن لم يخرج لهم الملك بناتهم من القصر .

وضربت الخيام، واعتصم الناس في حدائق القصر.

واليوم يمر تلو اليوم، و"مسرور" يشاهد ملكه يضعف، كلما تفاقم الوضع.

وظهر من الأفق فارس يرتدي هو وحصانه الأسود أنخرز بين الناس وهتف فيهم بالحقيقة

أن المملكة لم تعرف يوماً أمانًا.

والبرابرة.. هم من جند الملك، وهم من يعرفونهم جيداً، إنها كانت مجرد كذبة، فهم من صنيتعهم. حتى يدفع الناس ببناتهم إلى الملك، وهم مسرورون.

وفي الليل.. سمعت البلدان المجاورة رنين هتاف متغير غاضب ومراً.

أمر مسرور الجند أن تفتح أبواب القصر، ونفذ الجند الأمر، ولم يعرفوا لذلك سبباً.

وأخذ مسـرور سـيفه، وذهب إلى الملك، فوجده واقفًا أمام المرآة، ينظر إلى نفسه، ثم نظر إلى مسرور .

وقال لـه : " لقد أمرتك كثيراً، بأن تذبح الفتيات، وماذا لو جاء يوماً، وأُمرتك أن تذبح رجلاً .. هل تعرف ؟!.

فرفع مسـرور سـيفه، ليقطع رقبة " شـاه ريار" بعد أن فكر ليالٍ طويلة في تلك اللحظة، ولكنه كان يهرب دوماً من شيطان التفكير فيها.

ولكن سـهماً اخترق.. رقبة " شـاه ريار " قبل السـيف، وتوقف السيف في السماء .

ودخل الفارس الأسـود، كاشـفاً عن وجهه.. وكانت هي ...لقد عادت، كما وعدت.

وقالت له : " لا أملك أن أنصـبك ملكاً بدلاً منه، بعد ما فعلته.. ولكن ..لن تنسـى المملكة ما فعلته بها ولها، قد يغفر لك الناس دماء فتياتهن، ربما لا يعلمون أن الذبح كان بيديك وسـيفك، ولكن أنت تعلم فهل تغفر لنفسك ؟! .

وخرجت رافعة يد "مسرور" ورأس " شاه يار"، وصرخ الناس فرحاً.

وقالت، لن تقتل فتاة ولا رجل يعترض وهو يدافع عن فتاته .

ولكن "مسرور" اختفى من جوارها .

الناس هم من لاحظوا تحركاته ..فسألتهم.

وأشاروا لها على سلم البرج .

صـعد " مسـرور" ليلقي بنفسـه من فوق برج القصـر، الذي كان يطـل على غرفـة الـذبح التي حنـت أرضـــهـا دمـاء الأبريـاء.

لم يتغير شـــيٌ منذ أعوام، فالناس هم الناس، والبيوت هي ذات البيوت، والمواطنين في الميكروباص هم بذاتهم، رغم أنهم أناس آخرون، ولكن كلامهم وأسئلتهم عن المواضيع المختلفة هي هي منذ أمد بعيد، رغم اختلاف الأزمان والأحزان .

وكأن أحداً يمليهم كلامهم في الصباح.. ربما يستمعون جميعًا إلى محطة واحدة بعينها من محطات الراديو.

ربما تتغير أشكال العواصف في مواسمها.. فالجو يسوء أكثر، ويتحسن أكثر.

لم يعد أحد يحلم بطقس أفضل، فالكل يتمنى فقد أن تزول الرمال وترحل العاصفة.

ولو عاد الجو إلى سوءه الذي كان عليه، فهذا أفضل ما يحلمون به الآن.

اختفى لفظ الجلالة من السيارات والأفواه.

واختفت ملصقات الذكر والدعاء .

واختفت أيضاً الكتب المقدسة، وحلت محلها كتب ومجلدات أخرى ومجلات عارية.

أغلفة الكتب وأساميها والموسيقى هى أكثر الأشياءِ التي تغيرت.

****

كان هذا موعد مقابلته.. لقد ســـبقته إلى الشـــارع، وهي تعلم أن طريقه بالميكروباص سوف يطول.

ولكنها لم تكن قلقه عليه من هذا، بل قلقت عليه عندما يعرف.

انتظرته كثيراً.. ثم وصل في النهاية.

ها هو يطل بظله من بعيد، ها هو يراها، وهو يعلم أنها هي هى، بنظارتها التي تعشقها وتمقتها في ذات الوقت.

فضلت أن تخفي الأمر عنه الذي اكتشفته حتى يلاحظه.

وســألها: ماذا حدث اليوم ؟! الجو رصـــاصـــي المنظر، وبعض الهواتف لا تعمل، وكثيرٌ من أصدقائنا قد ماتوا في الصباح.

ردت بأنها لا تريد أن تجيب الآن، فسوف يعرف وحده العجب.

مرا على المقـاهي فتعجـب أكثر، بـأن البعض موجود، والبعض الآخر غير موجود.

لا يوجد أناس عادية، لا يوجد إلا من تنادوا بالحرية.

أو بمعني أدق، من عاشوا دون أي ضوابط أو قيود.

العبث يملئ الجو الرصاصي، ولكن الصمت رهيب.

نظرت إليه.. فوجدته قد شـــارف على فهم الأمر ومعرفة الاجابة، ولكنه يرفض هذا الفهم، ومعرفة الإجابة.. ولهذا هو بعيد عنها.

اخترقا الشارع الرئيسي، وهربا منه إلى أن عبرا إلى الجهة الأخرى.

ورأيا بعض الأشرار.. تقتل رجلاً سكراناً، ليسرقوه.

ولكنه لم يمت، بل قام واقفاً. وظل يتألم بصـوت عالٍ، ويصـرخ، ولكن لا يستجيب أحد لنجدته.

يدور.. ويســقط.. ويتصــور..أنه ســوف يموت، ولكنه يقوم مرة أخرى من الألم، فهو لا يموت.

نظر إليها فقالت: "لا أعرف ما الذي تفكر فيه؟!.. ولكن شـــيئاً غريباً يحدث يا آدم.. وإن اكتشـــفت أن الذي يدور بداخلي هو ما يحدث سـأخبرك به، ولكن لا تجزع، فأنا مرعوبة بما يكفي بسـبب ما بداخلي.

أمسك زراعها في قوة، واقترب من الرجل من بعيد.

وظلّا يشـــاهدانه وهو ينازع الألم، ثم لا يموت رغم شـــدة تقطيع جسـده وسـيلان دمه بأكمله، وحينما خرج شـيءٌ يشـبه العصـارة الهضـمية مع سـائل أخضـر اللون، صـرخ الرجل بكلمة لم تسـمع كثيراً منذ مدة.. فتبخر إلى السماء واختفى.

كادت "حواء" أن تنفجر بسـبب ما بداخلها، فقد كاد أن يتأكد أكثر فأكثر.

وما زال "آدم" يتعجب وينظر إليها.

ثم قطع إندهاشهما هذا، مجنون قد جاء بسيارته التي كانت متجهة ناحيتهم في سرعة رهيبة.

ولكن فجاءة.. توقف، عندما دهس أحدهم وهو يعبر الشارع سكرانًا أو هارباً، ثم انصرف المجنون بسيارته دون جزع.

تألم الرجل كثيراً، وكادت صيحاته أن تكسر زجاج المنازل.

ولكنه في النهاية.. قام ومشـــي بجســـدٍ معظمه مكســـور وكأنه "زومبي".

صــرخت "حواء" من هول المنظر، ومن هول ما يكبر في داخلها، ويتأكد أكثر فأكثر .

وارتمت في حضــن "آدم"، وعندما هدأت واطمأنت، فتحت عينيها، فوقعت على شـيء خلف "آدم" فصـرخت فزعة أكثر.. لقد شـاهدت أمامها امرأة منتقبة وأخرى محجبة.

بدا أنهما تائهتان، وحزينتان بشـــدة، ويُســـمع منهما عويل شـــديد مستنكر، على من مات من آبائهما.

أحس "آدم" بأنها لن تسـتطيع الوقوف أو السـير على قدميها وهي على تلك الحالة، فحملها وأراد أن يأخذها إلى مقهى مجاور.

وفي الجوار.. وجدا ما يشـــبه البيت القديم المتهالك مفتوحَ الأركان والحوائط.

وأربعة أو ربما ثلاثة من ثنائي، رجل وامرأة يمارســـون الجنس عرايا.

بشراهة... كانت تلعقه، وبشراهة.. كان يسير فمه على مفاتنها.

وثنائيات أخرى مثلية.. رجل ورجل.. وامرأة وامرأة.

كل شيء كان في الشارع، وعلى أعين الناس (إن وجدوا).

وإن وجدوا بدا في عيونهم عدم الإلتفات إلى ما يحدث، وكأن الذين يروه اعتدوه.

المقهى فارغ، إلا من وجوه تركت الحياة منذ مدة، تنتظر اللا شيء، وجوه كبر سنها وأخرى كبرت عن سنها.

الساقي وصبيه ماتا، ورحلا عن القهوة، وتركاها لفتى استغل عدم وجودهما.

وكلُ يخدم نفسه، ويدفع له أو لا يدفع.

الحائط يحمل بصمات قديمة متربة لبرواز يبدوا أنه أزيل عمداً.

ربما صـورة لأحد الزعماء.. لا.. فالبرواز رمي هناك في الركن بدا عليه أنه من مثل ما يحمل آيات أو أسماء الرب!!.

المياه التي تنزل من البراد و الصـنبور لا تشـجع أحداً على طلب الشاي.

انتهز فرصـة أنها هدأت، فرفعها بيده، وتوجه بها خلف الضـباب الكثيف.

كل شيء تُرك عمداً أو اختفى من كان معه..

السيارات.. تقف في الشارع فارغة..

كل شـيء فارغ إلا البالكونات التي تحتضـن عواجيز عفى عليهم الزمن أو أمهلهم ولم يهملهم.

من حين إلى آخر.. تتعالى الصـرخات أو الضـحكات النسـائية الخليعة.

الجثـث بجوار الجـدران عفنـة.. يتغـذى عليهـا الـدود والفئران الصغيرة.. وهي ما زالت تتحرك..

لم يعرف " آدم".. ما إذا كان أصـــحابها، مازالوا يتحركون أم هو من فعل الدود!!.

وقد علم أخيراً حينما رآه.. رجل تحلل معظم جســـده وعشى فيه الدود.. لقد كان يمد يده و يأكل الدود ويداعب الفئران..

يبدو أن الجثث التي ارتمت بجوار الجدران لم تكن ميتة.. معظمها فاقد الوعي فقط. وآثار القيئ.. يلطخها.. سجادة قيء من الجدران إلي ملابسهم مفروشة.

فتاة ...وكأن أحدًا قد اغتصبها للتو..

اقترب منها.. وحاول لملمة ثوبها المهترئ..

ارتمت في حضنه.. وطلبت منه الجنس..

قال لها : ربنا يخليكي شكراً .."فضحكت وبدا عليها أنها لم تفهم ما يعنيه" ..

سـألته وهو يلملم ما تبقى من ثوبها عليها: " لماذا تفعل هذا ؟".. قال لها : "لأن ربنا أمرنا أن نستر أجساد النساء إن بانت".

ضـــحكت وقالت من ربنا هذا؟!..الذي ما تفتؤ تذكره..أنا لا أعرفه .. اهو هنا، " تمتمت"، لقد كنت أعرفه قديماً وهو من فعل في هكذا.. وضحكت وانصرفت تغني في الشارع وتتراقص..

ونظر إلى "حواء" حذرًا غيرتها.. فوجد رجلًا يقف خلفها.. فنظرت حيث ينظر، ثم فزعت من المفاجأة وعلمت من هو على الفور..

وسأله الغريب: "أمازلت تصدق في أمره..؟؟!.. تلك الأكذوبة التي خدعت البشرية حتى يتسلط بعض الناس على بعضهم باسمه و أمره و..

رد عليه "آدم": إنها ليست أكذوبة.. فلم تستطيعوا أن تثبتوا يوماً.. لماذا جئنا، ومن أين، وما هدف وجودنا..؟.

رد الغريب:"وأنتم لم تستطيعوا أن تثبتوا، من هو؟ وأين هو؟ ولماذا هو خفي؟ وهل هو موجود أم لا ؟.

ردت "حواء" في شـــدة: "ما تفســـيرك لما يحدث!، أليس كل من يذكره يختفي؟!، أليس هذا دليل علي أنه موجود ويأخذ من له على الأرض ويترك من اختـار الأرض عليـه.." نظرت إلى آدم وهو ينظر إليها متعجباً" نعم يا آدم هذا ما كنت أخفيه عنك".

قال الرجل الغريب في شـكل درامى مسـرحي: "آدم.. أول خاطئ على الأرض.. لو كان نبيًا ومعصـومًا.. فلماذا أخطأ وتركه من خلقه ليخطئ؟!، وهل لو كان خالقًا عادلًا رحيمًا كما تقولون.. لماذا لم يتركنا في الجنة؟، ثم ضـحك سـاخراً : كما تزعمون.. وارتضـى لنا أن نرتمي في الأرض بين مشـقاتها.. وليس هذا فقط بل و سخر لنا شيطانًا يصـرفنا عن الصـواب والطريق إليه.. أي إله هذا؟ أم أي عدل في ذلك!! .. وأين ذهبت عقولكم..؟!!.

أرادت أن ترد فمنعها آدم ليرد هو: "لقد خلقنا حتى يباهى بنا خلقًا آخرين، ويباهي بنا أنفسـنا ويجعلنا فخورين بأنفسـنا، ويثبت أننا رغم ضـعفنا وقلة حيلتنا وكثرة الصـعاب والمشـاقات والملذات ووساوس الشيطان.. سنعبر إليه ونسير على الطريق الصحيح، فمن يريد أن يعد نفسـه لمهمة صـعبة أو من يربي رجلاً، يدربه وسط المشاقات حتى يصبح نفساً قويةً وبطلاً حقيقياً.. الدنيا ما هي إلا اختبار ..لعبة.. كالألعاب التي نلعبها على الأجهزة التي بدعناها حتى نضـاهي خلقه.. ومن يحصـد نقاطًا أكثر.. يفوز بالنهاية، ولكن حسب قواعد اللعبة وليس قواعد اللاعب نفسه..

لقد خلق ملائكة من نور طائعين بالقدرة، وخلق جان من نار خارقين في القدرة، وخلق بينهما الإنسـان ليثبت أن رغم عجزه

سيرتفع في العبادة حتى يكون أعلى من الملائكة، وأشد عبقرية من العفاريت والجان.

وخطأ ادم ومعصـــية إبليس كانوا مقدرين في العلم المطلق لكي تسير الحياة وتسخر الطبيعة والكون المكنون والملكوت والناموس كله للبشر.

ســكت الرجل الغريب لمنطق أدم.. ثم ســأله: " مم إذًا عرفت من هو..؟، فما هو..؟! وما كان قبل وجوده ؟!

ومن وجده ..؟!

ردت حواء (بعد أن نظرت إلى آدم) فسمح لها: "سأجيبك بعكس ترتيبك كي تعي ما أقول.. فإن كان قد خلق، فنحن نعبد من خلقه وليس هو.. وأيضـــاً هو فوق منظور عقولنا، فلقد خلق عقولنا في حدود، ووجوده يفوقها بكثير، بل ويخرج عن إدراكها، بأن لكل خلق خالق.. ومن هو، وما هو ؟، تستطيع عندما تذهب إليه، بعد عمرك أن تراه إن كان يريد أو تسأله عن ذلك من وراء حجاب..

قال الرجل الغريب متحدياً: " ولماذا خلقني لأعبده؟ وأرغمني على ذلك.. وخلق نارًا لمن لا يسير على إرادته.. و ندعي أننا خلقنا أحرار.. ويقول هو أنه خلقنا أحرار".

رد آدم سريعاً : "في البداية.. كان الأمر خلق متعايش مع بعضه دون تنازع، وكل يسير في ملكوت ، ثم تحول الأمر إلى غيرة من مخلوق لمخلوق، وتنازل أحدهما ونسي كلام ربه وسلم أذنه لمن يدبر له، فصح عقابه ولم يكن عقاب، بل كان هذا ناموس الكون.. فالجنة ليست بها دورة مياه.. وعندما عرفا طريق العورة وخروج القاذورات، كان وجوب خروجهما وتبعهما الشيطان حتى يفسد عليهما باقي الأمر، وبدأ الصراع ونحن سلالته.. أليس الأمر ممتع.. فلقد جعل الخالق نفسه نبراسًا، لمن لا يعرف الطريق، حتى لا يهيئ له الشيطان أي طريق آخر، ومن خوفه علينا، أرسل أناسًا يتحملون الإهانة والمشقة من أجل أن نعرف ماهية القصة.. أليس هذا بعدل.. واختارهم من بيننا، لأنهم هم أكثر الناس في أقوامهم معرفة به.. أو هم أكثر الناس الذين سعوا إليه، وتعلموا من سعيهم الطريقة التي يحفظون بها أنفسهم والناس، وتقويهم على الشر المستتر خلف الوساوس.. أليس هذا بإله حق.. فما من شيء منعنا عنه إلا وله سبب.. وسبب علمي أيضاً، وما من شيء أمرنا به إلا وله حكمة.. وتستطيع أن تتدبر ذلك ".

وأكملت حواء: "هل تحب مطربًا، له صـــوت عذب أو فناناً تنبهر بلوحته التي خلقها من إبداعه، هل جاء بهذا الرســـم من كون أو عالم آخر أم أنه أســتشــفه من الحياة التي حاوطته.. ومن أعطى المغني صوته الذي يبهر به الناس والعازفين.. لماذا نقلد المخلوق مثلنا ولا نريد حتى أن نذكر الخالق ونعطيه حقه.. ولو أن هذا الفنان أعطانا أمراً.. نفعله دون مناقشـــة، ولكن الخالق الذي وهب الفنان موهبته ووهبه حب الناس وهو المبدع الأول، نريد أن نناقشه في أمور خلقها لصالحنا، عبادة كانت أو خطيئة محرمة".

كانت قد اســـتدارت ممتعضـــةً في كلامها ونظر إليها "آدم" وحن عليها، وعندما رجعا لينظرا للرجل منتظرين منه ســـؤالًا آخر فوجدوه قد اختفى.

نظر "آدم" لـــ"حواء" وقال لها في حزن وعتاب: "لماذا لم تخبريني أن هذا ما يحدث؟".

ردت حواء :"ما كنت ستصدقني أوتصدق نفسك.. فآثرت أن ترى بنفسك بعين اليقين.. نعم يا "آدم".. كل من آمن بالخالق أو أقر له ولو في نفســـه أن بيده الأمر صـــعد إليه.. وكل من أنكر وجوده وكان في داخله شـك في وجوده ولو بسـيط مكث في الأرض إلى

حيث يعلم.. فامتعض "آدم" واتحد حاجبيه، وقبل أن يسأل "حواء"، قاطعه الرجل بعدما ظهر أمامهما مرة أخري..

الغريب: "ليس هذا بصـــحيح، إن الطبيعة هي التي تلفظهم منها.. فكل من ينكر قدرتها، ويعتقد في غيرها فإنها تلفظه منها.. كالغبار في الهواء".

وقبل أن يلتفتا إليه ، كان قد اختفى مرة أخرى بســـرعة شـــديدة.. فســـألت "حواء" بعينيها "آدم" ناظرة في عينيه، فأمســـك يدها، وقال لها: "فلماذا بقينا أنا وأنت..لماذا؟!!، نحن نؤمن بوجوده، بل ندعوا إلى سبيله أيضاً؟! لماذا يتركنا وسط هذا الهراء، فليأخذناو ننتهي".

قالها صـــــارخاً راجيًا أن يصـــــعد صـــــوته إلى الســـــماء.. ولكن الغريـب ظهر مرة أخرى، وكـأنـه هو الوحيـد الـذي أجـاب صـوته، وقال موضـحاً: "إنكم لازلتم تحملون شـيئا بداخلكم.. شـكًا في وجوده.. ولهـذا لا تلفظكم الطبيعـة، فلـديهـا شـــعور بـأنكم ستعترفون بها قريباً، لأن الشك بداخلكم يكبر".

وفي سرعة شديدة، وحتى تنتشل عقل آدم من التوهان قالت حواء: "لا يا آدم، يبدو أننا مازلنا نحمل شـــيئًا بالفعل، ولكن ليس كما

يقول، إنما هي رسـالة.. رسـالته يا آدم.. تذكر أنك قلت هذا منذ قليل.. قلت أننا ندعوا إليه وإلى طريقه ".

وأكملت باكية :"هذا ما كنت خائفة من التفكير فيه، وهذا الذي لم أكن أريده، بل كنت أرتعب منه.. وهذا ما كان يكبر بداخلي.. أنا آسـفه أنني لم أصـارحك من البداية.. وآسـفه أنني أنا التي أحمل الشك "..

كان "آدم" ينظر إلى الرجل الغريب شارهاً عينيه، وكأنه يريد أن لا يختفي من أمامه أو على الأقل يعرف كيف يفعلها..

وكان الرجل يقف ثابتاً يشـاهدهما بإبتسـامة سـاخرة على وجهه، والهواء يطير بعباءته ولكن عينيه ليستا مطمئنتين..

أمسـك آدم يدا حواء ودفعها للوقوف.. وهرب من أمام الرجل الذي ظل ثابتاً.. والذي عندما رحلا من أمامه عض على إصبعه أسفا..

جاب "آدم وحواء" الشـوارع كلها، بحثاً عن كل الأحياء، الذين يسـيرون في الحياة بلا هدف.. وظل يحدثهم عن وجوده وقدرته، والهدف من الحياة.. ولماذا نتعرض للمشـقة في الدنيا.. وظل يحاول ويحاول فقط أخذ الناس بعيداً عن الإنكار ".

الرجل يسير خلفهم من شارع إلي شارع، وينظر إليهما مترقبًا.. والضحكة الساخرة تقل شيئاً فشيئاً.. إلى أن وجد الناس تتناثر من بين يدي "آدم"..

العدد كان ليس بكبير، ولكن الأمر بدأ يكون مجديًا بعض الشئ.. وظل آدم يصرخ ويصرخ، ليتجمع الناس.. وتوقف العالم.. لم يعد هناك وجود إلا لثلاثتهم..

الجو الرصاصي.. تحول لونه إلى برتقالي، ولكنه مازال وكأن كل شيء محترق، ملتحف بلون واحد، والرؤية من مجال الجو مثل النظر من لفح النيران.. السماء البرتقالية.. تلوح بين الضباب.. وكأن باب فتح من الجحيم.. أحد أبواب النار تنظر إلى الأرض..

جلس الغريب ينظر إلى السماء ولكن.. ليس لموضعه منها، أي عرش الخالق، وإنما كان ينظر إلى سحابات البشر التي تتناثر في الهواء، فمن بين العشرات.. يستطيع آدم أن يقنع، ويحيد شخصًا عن الإنكار..

وعندما أنهكت قوى "آدم" من السير والهرولة والمناجاة والمناشدة والمناقشة، جلس على الرصيف إلى جوار "حواء".. فوجدا أمرًا آخر، ما كانا يريدان حدوثه..

امتلأت الشوارع بأجساد، تمشي بلا هدف، عارية تماماً أو شبه عارية.. وكأنهم موتى أحياء، يهمهمون همهمات غريبة.. في البداية.. ظنا أنها زئير"زومبي".

ولكن عندما استمعا إليها جيداً.. وجدا أنهم يرددون تلك الهمهمات الغريبة خلف الرجل الغريب العجيب.. الذي وقف وكأنه يستقبلهم في معبده رافعًا يده محتضنهم وعبائته تشتعل نارًا ليست بنار، وعروقه تسعى فيها ثعابين نارية..

المشهد ..كان مخيفًا.. فقد امتلأت الشوارع عن آخرها، و خرجت الأجساد من كل حدب وصوب..

المنظر من الأعلى مخيف.. فمن بين سحابات الضباب تظهر الشوارع مليئة بالأجساد أكثر ..

السماء البرتقالية النارية.. تحولت إلى لون وردي هلامي.. والشعور بالخنقة قد زال، بل وتحول إلى انتعاش مريح، شعور بارتياح الروح..

والخوف ذاب، وتحول إلى طمأنينة لا توصف.. وانعكس الضوء على وجههم، فنظرا فكان هو..النور ..

" فقــرة السيرك "

ما زال المشــهد الذي اســتفزه كثيراً، يعاد فى رأســه مرارًا وتكرارًا، ((كلب يتبول في بقعة مياه على الأرض وكلب آخر يشــرب منها بالجهة الأخرى)).

كان فيلم "الهلفوت" هو أقل الأشـياء في التلفاز تسـببا للممل، فلم يكن مملاً للغاية كباقي المواد المعروضــة في التلفاز، فلســبب أو لآخر.. وجد كل شـيء مملًا حتى الأشياء التي كان يحبها، والنوم بدأ يبارز جفونه حتى أصبحت رأسه كالمطرقة يميناً ويساراً، للأمام وللخلف، وكأنها تريد أن تخلع نفســها وتتحرر من قيد الرقبة الذي يربط قدمها في حجر الجسد.

نام ولم يشـعر بنفسـه إلا عندما وجد شـاشـة التلفاز تعلن عن نهاية الفيلم أمامه، لا يعرف ســببًا محددًا لإصــراره على الجلوس أمام التلفاز، رغم أن النوم يحرز فيه أهدافًا، ويســجل عليه نقاط، ولكنه آثر الصـمود أمامه رغم ترنحه الشديد، وحتى يستطيع خلع غمامة النوم.. أمسك بـ"ريموت" التلفاز وظل يقلب مرة أخرى، فلم يستوقفه إلا فقرة قديمة ذكرته بطفولته، ألا وهى فقرة الســيرك، التي كانت

على إحدى القنوات المحلية التي تبث نقلا عن بعض القنوات الأجنبية، كانت الفقرة مملة وعادية في بادئ الأمر إلا أنه انتبه إلى فقرة ترويض الوحوش، لم يكن انجذابه إليها بسبب الإعجاز الذي يفعله المدرب، لم يره على أنه إعجاز، فهو يعلم أن تلك الأسود والنمور تربت معه منذ الصغر، ولكن الذي استفزه هو.. لماذا تخاف تلك الوحوش الضارية من هذا الإنسان الضعيف..؟، ومن هذا الذي يتدلى من يده ويسمى "كرباج"..!!، ربما لأنها لا تعلم مدى قوتها أو لأنها لا تملك العقل الذي تعرف به مدى قوتها، مقارنة بقوة المدرب أو تحملها للسعة " الكرباج"، فهى لا تعلم أنها لو تحملت أول ضربة وصمدت دون أن تشعره بأنها خائفة من كرباجه سيكف عن الضرب ويهرب، ظل يحلل ويفكر ويتساءل إلى..

كل شيء فى الفقرة كان روتينيا وتقليديا، فالأسود تمر بين النيران، والنمور تدور حول نفسها في حركات استعراضية، وهى واقفة على قدميها الخلفتين، وتتراقص على أنغام موسيقى السيرك المعتادة، إلا أن أسدًا واحدًا عصى الأمر أكثر من مرة، بل لا يريد أن يمر من النيران أو خاف منها، وتحدى بزئيره زئير المدرب والكرباج الذي على الأرض بالقرب منه، كلما أشار بقدمه الأمامية، نال عليها ضربة بالكرباج.. تحمل الأولى والثانية.. ولكنه وقبل أن

تأتي الثالثة التي هدد بها المدرب رافعًا يده بكرباجه كان الأسد سائرًا باتجاه النيران، ولكنه كان يسير ولا يجري، فكيف له أن يقفز، والأمر ليس باليسير، هكذا سأله المدرب فنال الضربة الثالثة على أسفل ظهره، فجعلته رغمًا عنه يجري ويقفز بالفعل، وتركه المدرب يكمل سيره إلى مكانه، لكن الأسد توقف.. ولم يكمل السير، و ظهر جليًا الغضب في عينه، وثارت بقية الوحوش معبرة بزئيرها.. وكأنها تشجعه، ولكن ثقة المدرب في تدريب الأسد، بل وإخضاعه له، وشله لروح الوحش داخل الأسد.. جعلته لا يستطيع التفكير في النظر إلى ما يحدث خلفه، ولماذا يزأر باقي الوحوش؟!..

وبعد وقت ليس بقليل.. انضم إليه كل من عبر حلقة النيران، إلى أن وقفوا بجواره، وظلوا يزأرون على المدرب، ويستعدون للهجوم عليه، وبعد أن تجمع كل الوحوش في ظهر المدرب إلا قليلًا منهم.. وهم الذين ما زالوا في استجابة لأوامره.. ويدورون على أطراف أقدامهم الخلفية، بدأ الهجوم على المدرب من قبل الأسد الأول، فقفز على ظهر المدرب، ثم الآخر والآخر إلى أن ظن المشاهدون أن الاسود ستقطع بعضها واحداً تلو الآخر، بعد أن ينتهوا من أكل المدرب لآخر شريحة لحم فيه..

ومن بين الأســود.. قام المدرب ليحيي الجمهور المذهول من فرط مـارآه، ووقفت الأســـود بجواره تحيي الجمهور هى الأخرى، فقلد كانت فقرة من نوع جديد قدمها هذا المدرب البارع هو ووحوشه.

إلا أن أســداً كان من بين من تجمعوا خلف هذا الأســد البارع في تمثيل العصيان على المدرب، ظل ينظر للمدرب، وكانت عيناه لا تحتاج مترجمًا للغة الأسـود، فهي تقول : "المرة القادمة.. سـتكون حقيقية وبقيادتي أنا، ولكن هذا لن يحدث إلا بأسود حقيقيين وليس ممثلين، ولقد تعلمت الأســـود كيف ومتى تعطيهم ظهرك ويغفل عنهم كرباجك"..

صـــوتٌ عالٍ لعراك في الشـــارع.. أيقظه من النوم، فتح عينيه.. فوجد عروض "قنوات التلفاز".. قد انتهت، وبعد انتهاء الإرسال .. لا صوت إلا "شششش".

لقد بان نور الصــباح من بين فتحات الشــبابيك، لقد نام أمام فقرة السيرك المملة أيضًا، فهو لا يتذكر شيئًا، ولا يتذكر كيف نام على الأريكة كل هذا.. ولماذا ؟!.

ذهـب وهو يفرك عينيـه من أثر العراك مع النوم، وفتح بـاب "البالكونة" ليرى ما الذي يحدث في الشارع ؟.

وبين الصـــيحات العالية.. تبين له أن الســـائق لا يريد أن يتحرك بميكروباصـــه إلا بعد رفع الأجرة، والناس معترضـــة ولكنه مصـــر على قراره، لأنه وجد من يركب ولو كانوا قليلين.. فهذا مؤشـر بأن آخرين سـوف يرضـون بأجرته الجديدة الزائدة، ويركبوا أيضـا، ولن يستمع إلى "مصدعي الدماغ".

المشكلة بدأت عندما قرر هذا السائق منفردًا.. في الصباح الباكر أن "يجرش" بسيارته، ولا يتحرك فهو يعلم جيدًا أنه السائق الوحيد الموجود في الموقف في ذاك التوقيـت، وظـل النـاس يترجونـه ويســـتعطفونه ويســـتحلفونه بمصـــالحهم، طالبين أن يتحرك ولو لإيصـــالهم هذه المرة فحســـب، بل أن منهم من أغراه برفع الأجرة قليلا..

أنهى الســـائق فطوره وشـــرب كوبًا من الشـــاي، والناس ما زالوا يســـتعطفونه.. تكلم في هاتفه مكالمة طويلة غير مهمة و الناس على حالهم في اســـتعطافهم له، وهو غير عابئٍ بهم ولا بكلامهم، فهو يتكلم مع أصـــحابه المارين بالشـــارع، ســـاخرًا لهم من أفعال الناس الذين يستعطفونه وما زالوا يستعطفونه..

وبعد أن فاض الكيل بالناس وبعد وقت طويل من الترجي والاستعطاف بلا أدنى فائدة أو جدوى، لجأ بعضهم إلى زيادة المدح فيه، ومن كثرة المدح والترجي أحس السائق بأنه ملك الموقف، فانبعج وزاد في استرخائه في جلسته على كرسي المقهى، واضعًا يده في جيبه لإكمال هيئة "الملك السيد المسيطر".

اقترب منه أحد أصحابه الساخرين معه، فقال له (بصوت خافت) شيئًا في أذنه، فضحكا معاً بصوت عالٍ، ثم ذهب بعيدًا عنه، فذهب البعض إلى صاحبه هذا (الذي اقترب ثم ابتعد) ليطلبوا منه أن يتحدث إلى صاحبه السائق ليقنعه (بدلاله عليه أن يتحرك بالسيارة حرصا على مصالح الناس، فدفعهم عنه وهو يضحك ساخراً منهم.

هذا المشهد.. استفز أحد الواقفين الذي ينتظر نهاية هذه المسرحية الهزلية، فرفع صوته على السائق وقال له: "لو متحركتش هكسرها لك، إنت أيه ..ما بتحسش.. الناس عمالة تترجاك، وحاطة أملها فيك، وأنت إيه؟!...فرعون .. ؟!".

فرد السائق قائلا: "لا ياراجل !!.. طيب ما دام بقى كده.. أنا مش هتحرك.. أنا كنت هقوم دلوقتي عشـــان خاطر الناس دي .. لكن عشانك أنت بقى .. مش متحرك.. وريني بقى هتكسرها ازاي".

اندفع الشاب نحو السيارة .. واندفع خلفه أصحاب السائق، واعتدل السائق قليلاً في جلسته، ثم أدار وجهه الناحية الأخرى ليبرز عدم خوفه من ما سيفعله هذا الشاب الوحيد، فهو يعرف نتيجته مسبقاً..

وفجأة.. توقف الشـــاب مرة واحدة.. مما جعل أصـــحاب الســـائق يصطدمون به، ويدفعونه بين الناس المتجمهرة حول الميكروباص.

صـــرخ الشـــاب فيهم: "دا مش هيتحرك أبداً.. طول ما نتوا واقفين تترجوه، ســـيبوه وهو اللي ها يجري وراكم، ويدورعلى ناس تديله رزقه.. خليكم واقفين لحد ما يمشيكم على مزاجه".

لم يلقَ الشـــاب أي رد من الناس.. غير أنهم اســـتنكروا فعلته، ودفعوه ليرحل ولم يصـــغوا إليه.. خوفاً على غضـــب الســـائق مما يقوله، وعصيانه أكثر لمسألة أن يتحرك..

وقام السـائق متثاقلًا، وكأنه سـيعلن فرمانًا، وقال لهم : "إنه لن يتحرك.. إلا بأجرة، قيمتها ضـعف الأجرة الحالية، والتي هي فعليا مرفوعة عن الأصلية.. إلى ما يقرب من ثلاث أرباعها..

أغلق باب البالكونة، ودخل إلى شـقته.. وظل يفكر، ويتثاءب، ويهرش في رأسه، ويفرقع في أصابعه، و يتحدث إلى نفسه: "ماذا يفطر في هذا الصباح المبكر"، ثم فتح ثلاجته.. فلم يجد غير أول صنف في قائمة الأكل وآخر صنف بل هو القائمة كلها "البيض"، فقد كانت آخر بيضة ستفقص في هذا الصباح، وبعدما وضع ما وضع عليها، ليزيد من كميتها، وتملأ الطبق ويشبع بها، وضعها على النار الهادئة التي تنبأ عن آخر الأنفاس في اسطوانة الغاز، ثم أخذه بعيداً تفكير عميق.. هل مارآه بالأمس في فقرة السيرك.. كان حقيقاً، ويعرض في التلفاز.. أم كان حلماً وهذيانًا من فرط الملل، وأراد أن يعرف فقط.. كيف فهم لغة الأسد ؟،

ثم شم رائحة "شياط"، فلقد احترقت آخر بيضة، وانطفأت آخر شعلة، وانقضى آخر نفس في اسطوانة الغاز.

دبت فيه الحياة، فإذا به يجد نفسه فاتحًا عينيه لأول مرة، منذ آخر مرة، حينما صـنع في مصـنع ألعاب الأطفال، ووضـع في متجر الدمي الرخيصة، إذ إنه وقتها، قد تم تصنيعه على أساس أنه دمية قرد فاتح العين مبتســـمًا رافعاً يده للتحية أو للتعليق، ولكنه لم يتحمل كونه دمية وســـط كل هذا العدد من الدمى التي تقف أو تتحرك على ما جبلت عليه.

وبين انزعاجه من ضوء الشمس، الذي كان يجربه لأول مرة، نادته دمية قرد أخرى، كانت معلقةً على ظهر ميكروباص آخر، بجوار الميكروباص الذي هو معلقٌ على ظهره.

القرد الآخر: بالقطع.. هذه أول مرة ترى فيها ضوء الشمس!!.. لا تقلق.. ســتتعود عليها، ســتحبها في البداية ثم ســتمقتها بعد ذلك لسخونتها.. إلا إذا رأيت فيها الجانب المشرق.

رد عليه في استنكار: من أنت ..؟!

القرد الأخر: أنا ..!!، قرد معلق مثلك.. ولكنني فتحت عيناي منذ فترة ورأيت الشمس قبلك..

قال له وكأنه فخور به: أنت تستطيع التكلم، وتفتح عينيك وتغلقها، وتتحرك بحرية منذ مدة؟!!

القرد الآخر: ألم تعلم أننا نستطيع فعل ذلك إلا في هذا الصباح ؟!

رد حزيناً: لقد طننت أنني وحدي، وظننت أنني الوحيد الذي بلوته في قدرته على ذلك، لقد كنت مع دميً لا تفعل شـــيئًا مما تفعله أنت اطلاقاً، ولا تفكر من الأســاس.. ولكن لماذا نحن معلقين هنا هكذا ؟ .

القرد الآخر: لن تعرف الآن وبهذه السـرعة.. ولكن أنصـت جيداً، وأعمل عقلك، إذا ما كانوا وضعوا لك عقلا أو تركوك تعقل.. يبدو أن ميكروباصـــي يتحرك، ألقاك على خيرٍ مرة آخرى.. إلى اللقاء عزيزي القرد "المفتح" الجديد..

قائلاً لنفســه: "ما الذي جعلني أفتح عيناي؟.. يبدو أنني سـأجد ما لا يسـرني.. فقد كنت مرتاحاً وأنا مغمض العينين.. بعيداً عن هذا الهراء.. الذي تحدث عنه أخونا القرد الآخر..

تحرك الميكروباص به، وظل يشاهد ويطل على عالم غريب عنه، مر مئات البشر أمامه، ومرت نسمات الهواء ولفحات الشمس..

وفي الليل وجد الميكروباص قد توقف قرب المكان الذي كان متوقفا به في صباحًا.. وبعد لحظات أحس أنه يسمع صوتا قد سمعه قبل ذلك في هذا الصباح أيضاً، لقد كان القرد الآخر يقف ميكروباصه من قبله وقد كان ينتظره، ولكن هذه المرة لم يقف الميكروباصان بجوار بعضهما، فنظر له أن اسكت فعسى أن يسمعنا أحد وينكشف أمرنا ..

قال القرد الآخر بصوت عالٍ وهو يضحك ساخرًا:" تحدث تحدث يارفيقي بصوت عال.. فلن يسمعنا أو يفهمنا أحد.. فهم بعالم ونحن بعالم آخر".

تعجب مما يقوله، ومما يفعله، ورد عليه قلقًا: "ماذا تريد؟! .. أنا متعب ولا أريد أن أتكلم".

القرد الآخر: "هل وجدت من يتحدث معك غيري، هل صادفت دمي مثلنا.. ها قل لي.. أين وجدتهم ؟، "يشيح بوجهه عنه إلى الجهة الأخرى، فيسرع قائلا له: ..هل ستؤثر السكوت مرة أخرى.. هل تخاف من تجربة الحرية ؟! نعم.. لازلت لم تتعود عليها

ولكنها ليست بسيئة.. هل ستعود ثانية للسكوت، بعدما منحت نعمة الكلام.. هل مللت مني ؟!.. فإن كنت أنا السبب.. فلا تسكت.. فأنا الذي سأسكت، ولن أتحدث إليك ثانية، في سبيل تمتعك بحريتك". .

رد محاولاً تلطيف الأمر: "لا.. ليس الأمر كذلك.. ولكن الأمر صعب علي، ولم أعتده، وأخافه بشدة "..

القرد الآخر مغيراً الموضوع: " قل لي ماذا وجدت؟!، وماذا شهدت؟! احكِ لي قصة اليوم معك..؟

نظر إلي الزجاج الخلفي للميكروباص، الذي يري فيه وجهه، محاولاً أن يصنع منه شاشة عرض، يرى فيها، كل ما أهمه طوال اليوم، قائلا: "وجدت عالماً غريبا، هذا الذي علقونا به.. شيء غريب، فالكل يتمنى غيره، ولكن يركبه مضطراً.. يركبون متزاحمين وراضين بأي وضعية فيه أو مكان، كل غايتهم الوصول فقط..

وعندما يركبون يتذمرون، ويشكون الحال.. أما عن الشخص الذي يجلس في أول كرسي، ليقود هذا الشيء، فإنه يفرض عليهم ما ينشده.. سواء في الأجرة أو عدد الركاب أو الأغاني التي تأتي

فقط على "مزاجه" ورغبته هو، ومعظمها مجرد أغانٍ، زجها في جهاز المشغل.. لتسلية الطريق..

وعلى الرغم من أنهم كلهم مهمومون، فإنهم يسمعون معه أيضاً تلك الأغاني الكئيبة، التي يفضلها معظم أصحاب هذه الأشياء، "يضحك هو والقرد الآخر" دون مناشدته تغييرها أو على الأقل خفض الصوت قليلاً ..

فى اوقات كثيرة.. كنت أريد أن أقول له، أغلق هذا الصوت المزعج، ولكنني كنت أخاف أن يتكلم معي، كما يتكلم مع هؤلاء البشر، و في أوقات أخرى.. كنت أريد أن أطلب منه تهدئة السرعة، أو تخفيف الحمل وعدم (كبس الناس) بعضهم فوق بعض، ولكني كنت أخاف أن يأتي ليخلعني من مكاني، بل ويقطعني إربا.. فمن سيحميني منه آنذاك، فأنا مجرد دمية.. وأوقات أخرى كنت أريد أن أقول للناس:" اتركوه فهو الذي سيأتي لكم رغماً عن أنفه، لا تركبوا ولا ترضوا بحالكم على هذا النحو السيئ.. تكلموا جميعاً فقضيتكم واحدة.. وكنت أريد أن أصرخ في من يسكت منهم.. لأقول له: "إن كانت هذه ليست قضيتك اليوم، فغداً ستكون مجنيًا عليه في نفس وذات القضية، تحرك وأفق من الوهم قبل أن يطولك الهم.. فالهم واحد، والبشر من تراب.. ولكنهم

كانوا متراصين، منهمكين في حياتهم.. وهو يملي عليهم شروطه.. وكأنه جعلهم دمىً، و وضعهم في أمكانهم، كما وضعني..

قطع حديثه صـــبي، كان يداعبه من الخلف، ويرفع قدمًا وينزل أخرى، وعندما نظر إليه، وجده يمسح الزجاج الذي أمامه.. فنظر للقرد الآخر، ووجده غير موجود في مكانه.. كان الولد قد بدأ في غسل الزجاج، عندما ناداه أحد السائقين.. ثم نظر إليه وبحث عن القرد الآخر في كل مكان: "أين ذهب؟!، لقد بدأت في قول ما كنت أكتم داخلي، لقد كنت أريد أن أبث إليه همي".

القرد الآخر: هل افتقدتني !!!؟

وجد القرد الآخر قد جاء تماما بجواره من الجهة الأخرى، فقد تحرك ميكروباصه ليأخذ المكان المجاور في "الجراج" ..فسأله:" أين ذهبت..؟!! لقد بدأت أحكي لك كل شيء.. فهل أعيد عليك.. كل هذه مرة آخري ..!!

القرد الآخر : لا ..لا ..لا ، أنت لست بحاجه لذلك.. فأنا أعرف شعور وحديث اليوم الأول.. ومن الجيد أنك تحدثت وقلت كل ما تشعر به، ولم ترض بأن تكون دمية صامتة كباقي الدمي..انظر

حولك، ستجد دمي صامتة كثيرة، كالذي كنت تحكي عليهم منذ قليل".

كانت عربة قد جاءت لتدخل الموقف، وكشف نور كشافها وجود بعض الدمي المعلقة والموضوعة بداخل الميكروباص.. الكلب الذي يهز رأسه.. السلحفاة.. والخنفساء الحمراء الأنيقة.. ودمية الرجل الخارق.. دمية الرجل العجوز مع عصاه.. ودودة القز الكبيرة، وبعض الدمي المعلقة الأخرى، التي لم يتضح شكلها في الظلام.

أكمل القرد الآخر كلامه: "اسمعني يا صديقي جيداً.. فسأروي لك قصة شاهدتها يوماً ما.. فهذا اليوم كان مختلفاً، حيث جاء بعد أيام.. كان كل سائق ومسؤول عن ميكروباص، يرفض التحرك والاستماع للناس، وفضل ابتزاز الناس، والتلاعب بحاجتهم، واستغلال حالتهم، فمل الناس من هذا الحال كل يوم، وفي كل يوم.. كان يأتي شاب أو فتاة أو رجل أو امرأة تتذمر، ويحاولون دفع الناس إلى التحرك وحل المشكلة، إلى أن جاء هذا اليوم، ووجدت مشاجرة بين الناس وبين السائق، وأخرجت فتاة شيئًا معدنيًا حادًا ولامعًا في يدها، وأعلنت إن لم يتحرك السائق، فستفسد له عجلات الميكروباص، وانتهى تجمد الموقف كله بعد هذه

الكلمة، وكأنهم ينتظرون أن يخرج أحد، ليدلهم على الذي يفترض حدوثه بعد ذلك، إلى أن جاء شاب فكسر حالة الوجوم والسكون التي سادت، وقال: "هذا ليس بحل، الحل أن نركب جميعاً أي ميكروباص نريده، فنحن من نملكها كلها، وليس هم، بل ونفرض عليهم إن لم تذهبوا بنا أنتم، قدناها نحن بأنفسنا، ونادت الفتاة: "من يستطيع قيادة هذا الشيء؟، فخرج من بين الناس ثلاثة من الشباب، فتوجهت بهم نحو غرفة القيادة، فضحك السائقون وقال أحدهم: ومن أين لكم برخصة القيادة ..؟!

قال شاب: سنتصل بالشرطة ونبلغهم بموقفكم، وبالطبع سيمر الأمر علينا بسلام علينا، وجزاء عليكم..

من بين الناس.. خرج رجل شرطة كان ينتظر وسيلة مواصلات، ولحسن الحظ .. فقد كان وقتها مضطرًا لفعل ذلك، لأن السيارة الشرطية لم تأت، وأحس بأن الناس جادين في أمرهم، ولن يؤذ نفسه ولا عمله بذلك القرار.

وقال معلناً: "أنا رجل بوليس، وسأركب معكم.. وسأحميكم وأكون شاهدًا معكم".

خرج ســـائق أخر، وقال مهددًا: "هذه هي ســـيارتي، و إياكم أن يقترب منها.. تأتي الشرطة.. يأتي عفريت أزرق.. فلن أتحرك "..

نظر الناس بعضـهم لبعض، وكأنهم وجدوا صـيداً ثميناً.. وتحركوا معاً ووضـــعوا الســـائق في ســـيارته في مكان القيادة، وأخذوا منه الرخصـــة عنوة، وقالوا له: "إن لم تتحرك، سـنقود نحن، والرخصـــة معنا.. تحركت الميكروباصـــــات جميعاً.. لأن الناس تحركت معًا جميعاً، ولم يبحث كل واحد عن همه..

فالحل يا صـديقي.. أن يدرك الناس أن ما يضـر غيرهم اليوم، لا شـــك ســـيضـــرهم غداً، ومن معه المال اليوم، فهو في حاجة إليه غداً.. ومن ينسَ همَ أخيه اليوم.. ينسه أخوه في همه غدا..

رد عليه غير مقتنع بما سمعه: "ما تقوله هذا صـعب، وإن كان قد حدث لمرةٍ، فلن يحدث مرة أخرى".

القرد الآخر: "إذا انصلح حال السائق، انصلح حال الميكروباص.. ولن ينصلح حال السائق إلا لوانصلح حال الركاب. وعلى الركاب أن يقوموا بثورة دائمـة، لا تهدأ حتى يعود حـال الميكروبـاص كمـا أرادوا في شـكواهم.. عليهم أن ينتقلوا من مرحلة الشـكوى فقط، بل وينتبـهوا لحقوقهم.. التي لن يعطيهـا لهم أحـد، بـل هم من

سيحصلون عليها بأنفسهم، عندما لا يطيعون أمر السائق عميانا كالدمي.. وكذلك الحال في الأسواق والحياة جميعاً.. فالميكروباص يحتاج إلي ثورة.. وثورة الميكروباص.. لن تقوم إلا إذا اهتم كل فرد فيه بحقوق الآخرين جميعًا.. على من يجلس في الكرسي الأمامي بجوار السواق، أن يثور من أجل حق من يجلس منزويا بصعوبة في الكرسي الخلفي..

رد منهكاً من التفكير:" أيها القرد الفصيح.. إن نظريتك هذه.. تحتاج إلى ترك الناس همومهم هم، والنظر في هموم الناس، و الوضع قد لا يسمح في كل الأوقات والأحوال".

القرد الآخر: "لا ليس كذلك بالضبط.. بل إن الناس تدرك.. موطن قوتها.. وعليك أن تعرف جيدًا، أن السائق هو من يحتاج إليهم، أكثر من حاجتهم إليه.. وعليك أن تدرك.. أنه مجرد سائق، وليس بمالك وعلى الناس أن تؤمن أنها ستصل في الوقت الذي يحدده لها رب الكون.. وليس في الوقت الذي يحدده لها رب الميكروباص.. الذي يجعلونه هم ربًا لهم، بما يفعلونه معه وله.. ثم يشكون بعد ذلك حالهم.. فسائق الميكروباص ليس سائق آخر شربة ماء".

"يا أستاذ ..يا أستاذ ..حضرتك نازل فين؟!!"

"نعم ..إيه دا.. إحنا وصلنا؟!.. معلش أنا سرحت مع القرد المتعلق في الميكروباص إلى كان جنبك في الموقف".

"لا أبداً.. حضـرتك تؤمرني.. ولو عايزني أوصـلك أو ترجع معايا أي حته، أنا تحت أمرك، من غير حاجه والله".

"لا يا ســطى هنا كويس، وكفاية الراجل إلى ركبته من غير فلوس دا.. ربنا يجزيك كل خير ".

"إيه دا.. إنت أخدت بالك.. أهو الواحد بيحاول يعمل حاجة لوجه الله، عشـــان يباركله في رزقه..حكم الأيام دي، ما بقاش حد يرحم حد، وأديك شايف حال البلد".

"إن شـاء الله خير وهتتصـلح.." وهم بالنزول ..قائلا:" عايز أقولك حاجة، بس ما تفهمنيش غلط.. لو كل الســـواقين زيك، ما كناش احتجنـا لثورة.. ومـا كـانش دا بقى حـالنـا.. بس هي كـانـت لازم تنقلب، عشـــان لما تتعدل، يكون وقع منها، كل اللي ما لوش لازمة".

"ماشـــي يا اســـتاذ.. يلا بقى عايزين نلحق الدور التاني.. شـــوف مصالحك.. وعلى فكرة أنا عندي قرد متعلق ورا، بس أنت مخدتش بالك".

قال ضاحكاً : إنت قصدك عليا أنا ولا إيه.. ربنا يسلم طريقك..

مر الميكروباص أمامه.. وظل ينظر إليه حتى كاد أن يختفي عن عينيه، إلا أنه رأى لجنة شرطية أستوقفته.. وعلى الرغم من أدبه، و طـاعتـه للأمر، إلا أنهم عـاملوه كمـا يعـامـل بـاقي ســـــائقي الميكروباص.

تمت الرحلة

القارئ الكريم ....

إذا كنت تعتقد أنك قد فهمت تفاصيل تلك القصص، و ألممت بما فيها، فأرجوك أن تتمهل.. وانظر مرة أخرى فيه، فتلك القصـص.. ربما بعضها قد نشر في صحف معروفة قبل ذلك، إلا أنك ما زلت أول قارئ لها، فهي تقرؤك.. وأنت تقرأها، فدع لها نفسك، لتتعرف عليها.. وتتعرف هى عليك..

لم أكتب قصـص هذا الكتاب للواقعية فحسـب ، إطلاقا، بل كتبته للتفكير بـــــــــ"عقلانية " و"منطقية" فيما يجري من أشـياء غير منطقية..

فقد كان من الممكن أن أكتب تلك النظرية في ســرد عادي "رغي" حول النظرية والمفهوم.. ولكن حينما نظرت في الكتب الســماوية، وجدت أن أقرب طريق للعقول، هو القصــص، فالقصــص.. عبرة لأولي الألباب.. جعلنا الله وإياكم ..من أصحاب العقول ..

المسيرة الذاتية للمؤلف

أحمد سعيد أسمري

بوقت قيام ثورة الـــــ ٢٥ من يناير المجيدة، كاد يقترب من اتمام قصص هذا الكتاب..

بدأ كتابة القصـص والشـعر في مرحلة مبكرة من عمره، وبالتحديد في فترة منتصـف التعليم المدرسـي، وعرف بين أقرانه بذلك، وفي الجامعة التحق بفرق المسـرح وتميز في الفن المسـرحي، التحق بالمجال الصـحفي عن طريق هوايته للتصـوير الفوتوغرافي، وبدأ مشـواره بكتابة مقالات في عدة بوابات إلكترونية معروفة والجرائد الورقية.

تكونت رؤيته؛ من خلال قراءاته المتعددة في علم النفس والمنطق، وبعض الأبحاث التي أجراها حول الظروف التي نشـأت فيها الثورة، قبل وبعد، وكيف تعايش المجتمع مع الثورة كمفهوم وفعل ورأي، ركز على سيكولوجية المواطن المصري في الآونة التي بدأ فيها كتابة النظرية في سـطور مقالاته، والتي كان سـيتكون منها الكتاب لولا الليلة التي بدأ فيها قراءة الكتب السـماوية والأرضـية بشكل متوازي واكتشف أن القصص منهج " الإله".

المهنة: رئيس قسم الثقافة والفنون براديو حريتنا، ومدير تحرير الموقع.

المؤهل: بكالوريوس تجارة ودبلومة في الإدارة المالية والاقتصاد والبورصة ملحقة بشهادة أمريكية.

الخبرة في مجال الآدب:

- فوز في مسابقة القصة القصيرة بجريدة روزا اليوسف، عن قصة "طفل الزجاج"، في فبراير ٢٠١٤، ونشر أربعة قصص في موقع الجريدة " أنا وعدتك بثورة "، "هالة إمرأة" وأخرى.
- في شهر " مارس "فوز في مسابقة "أرب بلوج " للمدونات العربية.. تحت رعاية وكالة فرانس ٢٤ france24 ومونت كارلو الدولية MCD.
- نشر قصتين في موقع اليوم السابع " صماء الوحدة" وأخرى في نوفمبر ٢٠١٣.
- نشر أكثر من ٧ قصص في موقع جريدة " فيتو " ومنهم المجنونة " /أكتوبر/٢٠١٣.
- "دقن عيرة " – أكتوبر ٢٠١٣ – دولة قانون ٢٨ أكتوبر ٢٠١٣ | " طعم الورد " مايو ٢٠١٤، كبر وكبرياء يونيو/٢٠١٤. الفتنة القادمة يوليه/٢٠١٤. وأخرى.

- نشـر قصـة في كتاب مجمع لأحد دور النشـر الخاصـة، بعنوان " عمال جرم السـماء"، عرض في معرض الكتاب" ٤٦".
- إعداد بعض النصوص المسرحية كـ نص " أنا الآخر" و" شهيق وزفير"..
- نشر أكثر من ٤ قصص بموقع " ورقة " المتخصص في الأعمـال الآدبيـة وتقيمهـا.. آخرهـا " تجربـة الوجع"، يناير ٢٠١٥. دين العنكبوت.. نوفمبر ٢٠١٤ وأخرى.
- خوض ورشـة " إضـافة " التي يحاضـرها الدكتور " إبراهيم الجيهيني"، عن الكتابة السـردية والشـعرية " أدب القصـة والرواية والشعر بأنواعه".
- نشـر مقالات نقدية وسـاخرة في بعض الجرائد الورقية، كا روز اليوسف، الوفد، البديل. ٢٠١٢ / ٢٠١٣/ ٢٠١٤.
- أحد كتاب جريدة البديل للمقالات بين عامي ٢٠١٢ / ٢٠١٣/ ٢٠١٤.
- نشـر ثلاث قصـص في جريدة الشـروق الورقي والموقع " علاج نمو الذكريات"، الحب الأغنياء فقط، لعبة العفريت..

- نشـــر رواية " ســـلا خانة"، شـــاركت في معرض الكتاب الـدولي في القـاهرة 2016، معرض الكتـاب الـدولي في الإسكندرية، والمنيا.
- مدير في " مشروع "على صوتك" لصناعة الأفلام القصيرة المناصرة لحقوق المرأة.
- نشـــر تحقيق عن الأدب النســـوي ورســـالته نحو المجتمع والتطرف بعنوان " الأدب النســـوي رســـالة ســـلام" بمجلة المجلس القومي للمرأة.
- له تقرير "قصـــة صـــحفية" ترجمت لعدة لغات وكتب عنها في أكثر من وكالة أنباء حول العالم " فتاة تجوب الشـوارع بفستان الفرح".

الفهرس

مقدمة عن الكتاب.. .... ٩
" أنا وعدتك بثورة " ١٣
" الزن على الودان " ١٩
..جاييييين ... " في انتظار القراصنة " ٢٥
"الثبات على المبدأ" ٣٧
" يلا ياريس.. عايزين نروح " ٤٣
" الليلة الأولى .. في حياة الأراجوز " ٤٧
" فيلم .. الطيور الجارحة " ٥٥
"ملحد .. في سيدنا الحسين" ٦٣
" قصة شهيد .. اسمه أحمد نجيب " ٧٩
" دولــة قانون ....!! ٨٥
خيمة خشب.. .... ٩٥
" مسرور.. شاه ريار" ١٠٣
" الذين مكثوا في الأرض " ١١٧
" فقــرة السيرك " ١٣٥
" رب الميكـــروباص " ١٤٣